سلسلة شهادات سورية 4

كَمَن يشهد موته

محمد ديبو





كَمَن يشهد موتِه

سلسلة «شهادات سورية» - 4 -

محمد ديبو

كَمَن يشهد موتِه

سلسلة شهادات سورية -4- كَمَن يشهد موته
محمد ديبو

الإخراج الفنـي: فايز علام
لوحة الغلاف: تمّام عزام
تصميم الغلاف: فادي العساف

الطبعة الأولى ـ 2014
ISBN: 978-9953-583-39-6

تمت طباعة هذا الكتاب بمساعدة من جمعية
«مبادرة من أجل سورية جديدة» - باريس

الناشر:
بيت المواطن للنشر والتوزيع
دمشق ـ الجمهورية العربية السورية
هاتف: 78840213 961+
بريد إلكتروني:
baitelmouwaten@gmail.com

التوزيع:
أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي
شارع الحمرا ـ بناء رسامني
ص.ب: 6435 / 113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 750054 1 961 +
فاكس: 750053 1 961 +
بريد إلكتروني:
atlasbooks@gmail.com

الإهداء:

إلى أمي.. على أمل أن لا نخاف بعد اليوم، ونتحرر من الدكتاتورية، ليخفَّ خوفك/ قيدك عني!

وإلى محمد علوش والفارس كمال وأبي براء، وإلى كل من قاسمني ليل الزنزانة الطويل.. بكاءً وخوفاً وتقصّفاً وغناءً وحلماً بوطن ترفرف فيه الحرية!

أدوات الدكتاتور

(1)

«يلي بيترازل هيك بيصير فيه!» هذا ما قاله سجّان لمعتقَل، في لحظة تعذيب.

«الشاعر الرزيل!» هذا ما قاله معتقِل لمعتقَل في لحظة نشوة.

رزالة الاستبداد واضحة في معانيها ومراميها.

رزالة القاع/ الجمهور تمويه وستر لثقافة لم تتصالح مع ذاتها، فتعيش تناقضاتها بين هتك ثالوثها المقدس عيشاً، وتقديسه نصّاً، حفاظاً على النظام العام.

لغة القاع وثقافته متّكأ الدكتاتور، ينتزعهما منهم، ويعيدهما إليهم محمّلتين بما يريد فيستعبدهم.

(2)

تهمته: التفكير بالانتحار.

الاتهام بالتفكير دليل سلطة مستبد تقليدي.

تهمة الانتحار: سلطة مستبد حداثي.

الجمع بينهما: تزواج عقيم ينتج مسخاً يترك آثاره في تفكير ضحاياه، فينتصر وإن مات.

حين هاتفني الموت

«ما الموت إلا رسول الحلم إلينا.

إلا هنا،

إنه ضيف ثقيل مقيم!»

رنين هاتف لا ينقطع، أسمعه بين الصحو والنوم. أتململ منه ساحباً أحلامي من يقظتها إلى عوالم النعاس، دون أن أنجح، لأن الرنين يتتابع، ما هتك الأحلام وفتّح عيوني للنظر إلى الساعة. إنها السابعة صباحاً! نهضت بسرعة من يُلسع لتذكُّره شيئاً.

العقل الباطن استفاق بسرعة، وأدركَ أنه نادراً ما يتصل أحد في بلادي في مثل هذه الساعة إلا إن كان مستعجلاً وذا حاجة. شعرت بتأنيب ضميرٍ خفيّ لأني كنت أهرب من الرنين إلى النوم.

أمّ صديقي تسأل على التلفون: «محمد.. أنت هون؟».

«نعم».

«إي الحمد الله على السلامة، خوّفتنا!».

«أنا بخير لا تخافي، ما في شي عليّ؟ وأصلاً أنا هلأ عقلان!» (قلت لها ذلك، لأني توقعت أنها قلقة من أن أُعتقل مرة أخرى، لأن البارحة بدأت موجة اعتقالات بحق الناشطين المدنيين).

«الحمد الله على السلامة، قلقنا عليك كتير، فكّرناك استشهدت

(يرتفع أدرينالين القلب والروح) إنتا وينك؟.. دير بالك على حالك... لا تموت ديبووووو!» تقول برجاء قاتل، وكأنّ بوسعي طرد الموت!

موت! استشهاد!

سماعي هذه الكلمات جعلني أنتقل فجأة من ضفة الأمان إلى ضفة الخوف المطلق، لألج عالماً أسود: ضباب يملأ الروح، أخطبوط تلتفّ أذرعه على القلب وتضغط ببطء قاتل، نشفان الحلق المباغت، انخفاض القدرة على التنفس، أفكار مشوشة تتلمس صدمة المعرفة الأولى بما يعني من قلق التنبّه والتحفّز لسماع أخبار سيئة تعنيك.. كل ذلك مقابل رشقات من الأسئلة والرجاءات والشهقات الخائفة القادمة عبر الهاتف، والطالبة مني أن أبقى على قيد الحياة، دون أن أفهم شيئاً.

لحظات من اللا فهم واللا إدراك تنتابني، و كأنّ أحداً غيري هو المعنيّ بهذا الكلام.

«لا شك ثمة خطأ ما!» هذا ما قلته لنفسي بعد أن أدركت أني لست ميتاً، ولم أستشهد بعد!

الأمر الذي جعل الأسئلة تتقافز داخل مكعب الرأس: أليست صديقتي أحلام (صاحبة الاتصال) مخطئة؟

هل ثمة خبر كاذب منشور على الفيسبوك عني؟

ما علاقتي بالموت والشهادة، وأنا الحيّ الذي يكره الموت، وينادي بالنشاط السلمي ليل نهار، في مواجهة السلطة والمعارضة المسلحة في آن؟

ثم كيف سأموت، وأنا الذي لم يتحرك من مكانه منذ أسبوع، بسبب اعتقال صديقة لي والإحساس بالخطر يحوم حولي؟

ينحلّ اللغز، حين تقول لي أحلام عبر الهاتف: «اسمه يطابق اسمك. فكّرناك أنت!».

بعد انتهاء المكالمة انتبهت إلى أنّ على هاتفي عدداً من المكالمات التي لم أردّ عليها أثناء نومي، وعشرين رسالة تطمئن عني، متوجسة من موتي!

الأم سورية

أخرج من المنزل يومياً وأنا أودّع أولادي نظرة الوداع، فلا أعرف ما إن كنت سأعود إليهم أم لا!

قلبُ الأم يُطعن.

قلبُ الأم سورية.

صباح الخير يا أناي الشهيد!

«التشابه: ثقافة دكتاتورية
التنوع: ثقافة ديمقراطية
سلطة، معارضة: قتل الحلم».

اتجهت إلى «اللابتوب» بلهفة الخائف/ الخارج من موته، لأبحث عن سر هذا الشهيد الذي يحمل اسمي، ويقلق أصدقائي ويبلل صباحي باستشهاده.

صفحات «جوجل» والفيسبوك واليوتيوب تتناقل خبر «استشهاد محمد ديبو في مدينة دوما».

يرتجف قلبي وأشعر بخوف رهيب كأني في مواجهة الموت حقاً. الخوف يسكن خلاياي، والعرق يقطر من إبطيّ كأني أموت حقاً (هل يتعرّق الموتى؟).

أحدّق في الصور الظاهرة على الشاشة: الشهيد لا يشبهني، فلِمَ يحمل اسمي إذن؟

أقرأ بخوف عنه وأقارنه بي: استشهد في مدينة دوما أثناء القصف، دون وجود أية معلومات أخرى عنه.

أسئلة كثيرة تقفز وأنا أحدّق بوجهه على شريط الفيديو، دون أن أجرؤ على فتح الشريط: لماذا استشهد الآن؟ وهل كان يحمل السلاح أم استشهد وهو في منزله؟ هل كان مؤمناً بالعنف لتحقيق أهداف سياسية، أم أنه ضد العنف مثلي أنا الذي أرفض الانجرار للعبة السلطة في مكان تتفوق فيه؟!

هو من اللاذقية وأنا من بانياس، إنه جاري إذن! (في العرف الساحلي حين يلتقي اثنان من مدن قريبة من بعضها يقول واحدهما للآخر: أهلاً جار!).

صباح الخير إذن يا جاري الشهيد!

صباح الخير يا أناي الشهيد!

هل نتشابه بشيء آخر غير الاسم؟ ما سرّ هذه الأسماء؟ وما علاقتي أنا مع الأسماء المتشابهة أيضاً؟

مرة كتب أحد الممثلين السوريين الذي يحمل اسماً مشابهاً لاسمي أيضاً مقالاً في صحيفة محلية، فأتتني اتصالات بعضها يؤنبني على الكتابة في صحف السلطة، وبعضها يشدّ على يدي، علماً أنني حين أكتب مقالاً باسمي لا أحد يتصل بي؟ هل بات الناس يتذكرونني بأسماء الآخرين؟

أخاف من فتح شريط اليوتيوب الذي يصوّر جثة الشهيد، متسائلاً: هل يمكن لميت أن يتفرج على موته؟

أتشجع قليلاً.. أفتح الفيديو: وجه الشهيد يغطي الشاشة، كأنه غير ميت، كأنه نائم.

أليس «الناس نيام فإن ماتوا انتبهوا»، كما قال علي بن أبي طالب؟!

هل مات هو لأنتبه (أنا) النائم؟!

وما الحكمة من ذلك؟ إذا اعتبرنا أن ثمة رسالة سماوية من اتصال الموت الصباحي هذا، كما تقول المرويات الشعبية في قريتي.

رغم الدماء النازفة، يبدو وكأنه في استراحة من الحياة لا أكثر. صوت يأتي من الفيديو كأنه يقلق راحة النائم/ الميت، صوت يشتم الدكتاتور الذي تسبّب بموتنا، صوت يقول: «اللّه لا يوفقك يا بشار!».

أفكر بي كَمَيّت، لو كنت مكانه لكان أزعجني صوت «اللّه لا يوفقك يا بشار»، ففي مثل هذه اللحظات الفاصلة بين الموت والحياة، لن أضيّع وقتي

بالتفكير في الدكتاتور حتماً. سأتركه لأصدقائي الناشطين الذين خضت غمار الانتفاضة وتظاهراتها معهم، فهم أدرى بكيفية ترحيله أكثر مني بعد أن افترقت عوالمنا.

لو كنت مكانه/ي لأزعجني إقلاق لحظاتي البرزخية تلك بنشاز الدكتاتور، ومحاولة استغلال موتي لشتمه، فالموت أرقى من أن يلوّث بصخب السياسة وقذارتها، أرقى من أن يكون مادة للنضال لأن استغلال الدم (على عكس ما يتوقع الكثيرون) يلوّث النضال ويشوّهه، يحوّل الإنسان من ذات فاعلة إلى مجرد أداة، يشيّئ الروح البشرية ويختزلها إلى مجرد محرّض على الموت. في حين أنه يتوجب أن يكون (أي الموت): لحظة صمت، وداع خافت، احتفاء ما ببدء رحلة جديدة لروح الراحل الذي يعيش لحظة فاصلة بين عالمين: تذكُّر أجمل ما عاش، واستشراف ما يخبّئه المجهول القادم.

لو كنت أنا هو، لصرخت: أوقفوا لعن الدكتاتور الآن، ودعوني أتذكر.. أعبئ في روحي الجديدة زبدة روحي القديمة وأجمل ما عشته في عالم الأحياء والدكتاتورية (هل يعيش المرء حقاً في عوالم الدكتاتورية؟): أمي التي منذ طفولتي تحذرني من «العلقة مع الدولة، لأن الدولة يا ابني ما بينعلق معا»، أمي التي يهجس بها القلب صبحاً ومساء، ياغصة عمري الدائم (سأعبرك الآن بسرعة لأني أريد أن أبقيك معي في رحلتي إلى العالم القادم. لا أريد لعبورك أن يكون عابراً بل مقيماً أبداً)، روائح النساء اللواتي أحببت، غصة قلبي حين تركنني وحيداً في مهب العشق، إذ لا تزال ذكراها تحفر في القلب كسكّين تدمي، أول مرة مارست فيها العادة السرية، أول امرأة لحست لها فرجها (هل ثمة متسع لفعل هذا في العالم القادم؟ آمل ذلك)، أصدقاء العمر الجميل، أول نص كتبته، أول نص نشرته، أول كتاب نشرته لي دار الساقي «خطأ انتخابي»، واستدعيت بسببه للتحقيق في أمن الدولة!

أوه.. تباً للدكتاتورية تقتحم حتى الموت، فكيف ألومهم أولئك الذين يلعنون الدكتاتور فوق جثتي، إذا كنت أنا غير قادر على طرده من موتي!

يكفي أنه يحتل الحياة والموت، ملوّثاً إياهما بآلات قتله وخوفه، حتى نفكر بإسقاطه. هل ثمة دكتاتوريات أيضاً في العالم الآخر حيث أذهب؟ وهل تمكن الثورة عليها وإسقاطها أيضاً؟ وماذا لو كانت رحلتي إلى حيث يرقد اللّه؟ فهل يمكن إسقاطه؟!

لِمَ لا؟ أليس هو الدكتاتور/ الإقطاعي الأول: مالك السماوات والأرض وما بينهما؟!

أليس هو الذي يتفرج على موتنا منذ ثلاث سنوات؟ أليس هذا سبباً كافياً لإسقاطه هو ونظامه الكوني الظالم؟ ألم يسمع نداءات السوريين الهشة وهم يصرخون ملء السماء: «يا اللّه ما إلنا غيرك يا اللّه!» بعد أن ضاقت بأصواتهم آلهة الأرض وخذلتهم.

ولكن لم ينقذنا اللّه من الدكتاتور؟ أليس الشعار أصلاً تعبيراً عن عجز أكثر مما هو توجّه للّه؟ أليس هو انزياح من البشري الفاعل إلى الغيبي اللافاعل؟ أي التوجه لإسقاط الدكتاتور عبر الوهم بدل الاعتماد على العلم، لأن الثورة قوى فاعلة تقوم بها ذوات فاعلة واعية، وليست ذوات مأخوذة بالعالم الآخر وحورياته، إذ يكفي معرفة أنّ اللّه لم يطح يوماً دكتاتوراً لمعرفة حجم الوهم الذي غرقت به ثورتنا.

أعود إليه ذلك الشهيد الذي تقمصته، أتذكر أني لست هو، لكني أعود أفكر به، كأني أفكر بي: هل كان يمكن أن يكون أنا؟ أتحسس قلبي لأشعر بنبضه بيدي، لأني في مثل هذه اللحظات لا أثق بكثير من الأشياء التي أراها.

ماذا لو ولدت مكانه وولد مكاني؟ ماذا لو تبادلنا أمهاتنا وحيواتنا؟ وهل لو حصل هذا لكنت أنا الميت؟ ما هي الظروف التي عاشها لكي يصل

إلى مدينة دوما القريبة من دمشق وهو ابن اللاذقية؟ هل هو متزوج و له أولاد؟ أين عائلته؟

معلومات شحيحة عنه على الإنترنت، أبحث مجدداً على «جوجل» علّي أعثر على معلومات عنه، كأني أبحث عن ذاتي فيه، أشعر أنه مات نيابة عني، ولهذا ثمة امتنان غريب له، يدفعني للبحث، ولكن لا معلومات بعد ساعتين من البحث.

هكذا يختصر الشهيد في بلادي إلى اسم ورقم يضاف إلى سجلات الشهداء الذين لم يعد يعرف عددهم حتى الله نفسه، بعد أن استقال من مهماته الإلهية وتركنا نواجه الجحيم وحدنا وحدنا.

هذا الأمر دفع مجموعة من الناشطين إلى بذل محاولات للعثور على معلومات عن كل الشهداء، وكتابة حكايتهم وحيواتهم وأحلامهم، وذلك لانتشالهم من برودة الرقم الذي تسجّلهم به منظمات حقوق الإنسان والمنظمات الدولية، إلى حياة وصخب الحكاية/ الرواية، بكامل شغفها وألقها.

وعلى المنوال نفسه سيطلق الناشطون حملة موازية للتضامن مع المعتقل الذي لا نعرفه، لأن ثمة الكثير من الاعتقالات التي لا نتمكن من إحصائها، إذ يبدو أحياناً أن ثمة معتقلين يأخذون حظهم من الإعلام وتسليط الضوء على قضية اعتقالهم، في حين أن معتقلين آخرين لا يحظون بهذا الأمر، إما لخوف الأهل أو لاعتقال الشخص بطريقة اللصوص اللاشرعية.

اغتصاب لا مرئيّ

امرأة وجدت مغتصبة ومقتولة.

الأب قال: «منيح يلي ماتت!».

قول الأب: اغتصاب آخر لا يقلّ وحشية عن الأول.

الأول جسديٌّ/ زائلٌ/ مرئيّ محسوس. الثاني: روحيٌّ/ خالدٌ/ لا مرئيّ.

الأول: يغتصب. الثاني: يشرعن.

الثورة التي لاترى الضفتين!

في الضفة الأخرى: حزن وموت أيضاً
هل يهمّ الأم أين مات ابنها؟ ولِمَ؟
فهو مات وهي «انزوت في ثياب الحداد».
الموت يوّحد. الوطن يمزّق.

حين التقليب في ذاكرة هاتفي للرسائل الواردة والأرقام التي فاتني الرد عليها، وجدت أن ثمة اتصالات من خارج البلد وأخرى من داخله لأرقام غريبة، الأمر الذي أيقظ الحس الأمني في داخلي، لأني أعيش منذ أيام رهاباً مضاعفاً من اعتقالي للمرة الثانية، الأمر الذي جعلني أفكّر: كيف حصل هؤلاء على رقم هاتفي، وأنا الحريص على أن يبقى لدى أشخاص محددين فقط لضرورات أمنية، ولأن اعتقالي الأول كان بسبب مراقبة خطي وتحركاتي!

قلت ساخراً: وما فائدة أن يبقى رقمي غير معروف ما دمت ميتاً!

العبارة نفسها سيقولها لي صديقي، بعد أن أنّبته لأنه أعطى رقمي للآخرين: «صدقت أنك متّ، وبتُّ أعطي الرقم لمن يطلبه ليتأكدوا لي أنك لم تمت! ثم إنني حين قرأت الخبر لم أعرف ماذا أصابني، بتُّ أتصرف كالمجنون، خاصة حين لم تردّ على اتصالي!».

«كيف سأرد عليك وأنا ميت؟!» قلت ساخراً وضحكنا معاً.

كلامه يأخذني نحو ردات فعل الأصدقاء على موتي.

هل أشهد مشهداً سيحصل حين أموت حقاً؟ هل سيبكونني؟ هل يموت المرء وهو يشهد موته في ردّ فعل الأصدقاء ورثائهم؟

وهل تصبح حياة المرء مكشوفة وأسراره مفتوحة للهباء إن مات؟ هذا ما فكرت فيه طويلاً، وأنا أرى أرقام أصدقاء لم أرهم منذ مدة طويلة بسبب اختلافنا السياسي وتباعد طرقنا، على خلفية الموقف من الانتفاضة السورية ونظام الدكتاتور، أرى أرقامهم، وأشعر بالغصة تبتلعني.

أصدقائي الذين يسكنون الضفة الأخرى ويقفون بجانب الدكتاتور غير عابئين بالأطفال الذين تقتلهم طائراته ودباباته، والذين ظننت أنهم لن يسألوا عني بسبب مواقفي السياسية وآرائي، وها هم أولاء يطمئنون على موتي!

هل الموت وحده يوحّد السوريين بعد أن فرّقهم الوطن؟ أم الإنسانية المغروسة فينا تبقى أهم من السياسة وخلافاتها؟

هذا ما أفكر فيه، وأنا أتأمل موتي وموت أصدقائي في ضفة المعارضة ممن لا يراهم أصدقائي المؤيدين إلا «عراعرة وسلفيين»، وموت أصدقائي وأهلي في ضفة النظام الذين لا تراهم المعارضة إلا «مؤيدين» و«قتلة»، وبينهما أتمزق أنا المعارض الذي يرفض الموتين معاً، فالموت واحد ولا ينفع أيّ كلام أو رثاء أو تمجيد أو تضخيم بعبارة من نوع «أم الشهيد»، التي نقولها لأم تغصّ بالبحث عن جثمان ابنها الذي لن يأتي إلا نعوة في برقية!

ماذا أقول لأهل أصدقائي الذين يرقدون في المعتقلات وأمامهم يبقى احتمال الموت تحت التعذيب خياراً يومياً؟ ماذا أقول لمن هدم بيته في القصف أو مات أهله تحته؟

وماذا أقول لصديقتي التي مات صديقها «خالد بكراوي» تحت التعذيب، وأنا أرى غصة الحزن في عينيها، وهي تروي حرقة قلب أمه؟

وماذا أقول لزوجة خالي التي فقدت ابنها «علي» أثناء هجوم المسلحين على مفرزة الأمن العسكري في رأس العين؟

وماذا أقول لعمتي التي قتل ابنها عمار الذي حبا وشبّ تحت نظري، وكنت أعلمه وأدرّسه، وكان شريكي في العمل؟ بل ماذا أقول لنفسي حين يموت؟

ماذا أقول يا موت؟

أبشع الموت حين يكون موتاً مجانياً، وبلا سبب.

لا أبشع من موت معتقل تحت التعذيب، لأن الموت هنا هو فعل انتقام إضافي تمارسه سلطة الإجرام التي لم يشفها الاعتقال فتلذذت بالقتل!

ولا أدري حتى اليوم معنى دخول المعارضة المسلحة من تركيا إلى مدينة «رأس العين» الحدودية، لتقوم بقتل عناصر مفرزة الأمن العسكري بعد أن سلّموا أنفسهم؟ لِمَ لم يتم أسرهم؟ لِمَ قتلهم؟ هل الموت لعبة يا مجرمون؟

هذه جريمة لا تقل فداحة عما يفعله النظام في معتقلاته. والجريمة يجب أن تسمّى جريمة ولا اسم آخر لها، خاصة حين لا يكون للمفرزة المعنية في مدينة حدودية بعيدة أي أثر على النظام الذي تود المعارضة إسقاطه عسكرياً، فكيف حين يكون الأمر نزولاً عند أجندة تركية واضحة تعبث بالدم السوري وسط صمت العديد من المعارضين.

لقد عشت في «رأس العين» سنة كاملة، وأعرف أهلها الطيبين وأعرف عن كثب مدى تسلّط الأمن وتنمّره و تجبّره عليهم ومدى فساده، مما حوّل المنطقة إلى بقرة حلوب للابتزاز والسرقة والفساد وحصد الأتاوات «على الموسم» وتخريب التعليم والمؤسسات، إلا أن الطامة الكبرى أن رجال الأمن قتلوا على يد غرباء قادمين من أنقرة، لا على يد أهل المدينة الذين لهم كل مبررات الانتقام، ولم ينتقموا؟ وحتى لو فعلوا لكان الأمر خطأ، لأن الانتقام لا يجرّ إلا الانتقام والدم، و لكن هل من معنى لهذا الكلام؟

المعنى الوحيد هو قول الحقيقة، إذ لا ثورة دون حقيقة، ويجب أن لا نسمح للمنتصر بكتابة التاريخ، حتى لو كنّا نحن.

صديقي وشريكي وابني، وابن عمتي: عمار!

يا غصة القلب الحزينة، لم فعلت ذلك؟

لِمَ لم ترد عليّ حين اتصلت بك بعد خروجي من المعتقل؟

هل صدّقت روايتهم عني بأني «جاسوس»، و«عميل لبندر بن سلطان وأمير قطر»؟

لم يفاجئني مقتلك في دوما، لأني أعرف تفكيرك الذي لم أقدر أن أغيّر فيه شيئاً، ولكن أن تفكر بما تريد شيء وأن تموت شيء آخر! فالموت ليس لعبة. هذا ما أدركه اليوم وأنا أتحسس موتي/ موتك في موت آخر يحمل اسمي، فكيف وأنت الذي متّ حقيقة ولن أراك يوماً لأعاتبك وأشتمك وألعن الآلهة التي غرّرت بك كما تلعن أنت الآلهة التي غرّرت بي؟!

الغريب يا ابن عمتي أن كلينا (أنا/ هو الذي حمل اسمي، وأنت) مات في دوما. أنت كنت سائق دبابة وأنا كنت هناك!

من منّا قتل الآخر؟ أأنت قتلتني أم أنا قتلتك؟

أفكر لو كان المتقاتلون يضعون أسماءهم على صدورهم، فهل كنت ستقتلني/ تقتله؟

لو كنت تصوّب رشاشك أو مدفع دبابتك لو قرأت اسمي على صدر ذاك الذي يحمل اسمي، فهل كنت ستطلق؟

أراهن أنك ستتردد للحظة وتتذكرني وتطلق رصاصك في الهواء بعيداً عني/ عنه، فيا شبيهي في الاسم لِمَ لم تضع اسمي/ اسمك على صدرك لتنجو من الموت، أم كنت أيضاً غبياً لتستعجل الشهادة؟ أم أنك كنت تريد أن تحيا فحسب، ولم يتركوا لك إلا الموت أو الموت، فاخترت موتاً يشبهني/ يشبهك؟

ولكن ماذا يفيدنا هذا؟ فها أنتَ متّ؟ وأنا أموت في غيري كأني متّ؟

ماذا يعنينا الوطن، إن متنا، فهل سنصحبه إلى العالم الآخر؟

أليست الأوطان في نهاية المطاف كذبة يحكمنا بها الطغاة؟

ما نفع الأوطان إن لم تكن نحن؟!

نحن الشعب الذي يجب أن لا يموت، بل يعيش.

وهل يدرك هذا الشعب، أن الضفتين تسبحان بالدم، دون أن يعني الأمر مساواة الضحية بالجلاد، فكل يرى نفسه ضحية، وليس مهماً اعتقادي أنني في الضفة الصحيحة ضد الاستبداد، فحين يموت المرء لا يعينه سوى أنه مات وأن أمه ستبكي عليه.

أعرف أنك ستحتجّ وتقول لي: «أنا لست جلاداً، أنا أموت لأجل وطني ولأمنع العراعرة من الانتصار، أنا لا يعنيني الأسد بل يعنيني الوطن!».

وتعرف أني سأردّ عليك: «ولكنك تساعد المستبد في حربه على شعبه، وتصمت عن مقتل المعتقلين واغتصاب السلطة التي ليست من حقه».

«أعرف ذلك، ولكن حين المقارنة بين هيكل دولة وعراعرة، فإني أختار هيكل الدولة هذا!».

هذا حوار أتخيّله بيني وبينك، لأني أتوقع ردودك وأعرفها عن ظهر قلب، حين كنت أدرّسك، وحين كنت أغضب منك لأنك لم تدرس جيداً.

هل ستسامحني لأني ضربتك يوماً لأنك لم تحفظ الدرس؟

آه أيها القلب، كم أنا حزين عليك يا سورية، فبين موت وموت تحيين، لينتصر الطغاة: طغاة السلطة وطغاة الحروب!

هل يجب أن نموت ونشعر بسخرية الحياة وهزلها، لتتوحّد ضفتاك يا سورية؟

لعنة الله عليكِ، إذا كان وجودك/ بقاؤك يُحييه موتُنا!

وخبرها بأن النكت الآن مرايا[1]

نازح/ ناجح ويعيد:

لا مجال لمقاومة الواقع المرّ إلا بالسخرية.

ينجح الطالب ويعيد الدراسة، فنقول: ناجح ويعيد.

السوريون الذين تكرّر نزوحهم بين منافٍ متعددة، أخذوا العبارة وأعطوها معنى بلاغياً/ ساخراً جديد: نازح ويعيد!

السخرية ملاذ الضعيف وأداة احتجاجه.

هي محاولة لهزيمة الموت عبر إغرائه بابتسامة.

1- من قصيدة لمظفر النواب.

حين تكون الأمّ قيداً

«القيود اللامرئية أقسى أنواع العقاب.
المرئي مصدره خارجي، فتسهل مقاومته.
اللامرئي داخلي لا يقاوَم دون تمزّق الذات.
من مستعدّ لتمزيق ذاته؟!»

أول شيء فكّرت فيه، بعد أن تركت شاشة «اللابتوب» وابتعدت عن وجه الشهيد الذي يحمل اسمي، هو أمي التي لم أرها منذ ثلاث سنوات، إذ حمدت اللّه أن أهلي الذين يقطنون في قرية على الساحل السوري ليس لديهم إنترنت، ولا أحد منهم يعرف الفيسبوك ومشتقاته، وبالتالي، فهم لا يعرفون تلك الأخبار التي يتم تناقلها على صفحات الفيسبوك واليوتيوب، وتتسقطها التقارير الإعلامية للمحطات الكبرى، وإلا كنت سأضطر أن أذهب إلى أمي، في هذه الظروف السيئة، لتتأكد أني لم أمت! خاصة أنني لم أرها منذ خروجي من المعتقل، رغم أننا نقطن في وطن واحد!

هل حقاً نحن في وطن واحد، بعد أن حوّلته الحواجز وفِرقُ الشبيحة المتجوّلة والأجهزة الأمنية، إلى أحياء وكانتونات وسجون للرعب والموت؟!

ماذا؟ هل قلت إني سأذهب إلى القرية؟ هل أحد يذهب إلى مكان اعتقاله؟

آه يا أمي.. يا غصتي الدائمة والمتكررة!

حمداً للّه أنك لم تسمعي بموتي الافتراضي، لأن ذلك لو حدث لما كنت

سأجرؤ على الذهاب إليك، بسبب القلق والخوف والذاكرة التي تحاصرني، مذ اعتقلت في القرية في التاسع عشر من آذار 2011 بسبب الذهاب للمشاركة في مظاهرة الخامس عشر من آذار، في دمشق برفقة الشاعرين عمر إدلبي وعمر سليمان، وقد كان اعتقالي بسبب وشاية بعض الأصدقاء/ الكلاب. أصدقاء!

يا جرح الصداقات الكاوية!

كيف يمكن لشخص أكلت وشربت معه، وفتحت له بيتك وقلبك وأفكارك، أن يخون لأجل سلطة عاهرة؟ كيف لـ «صديق» أن يتصل بك داعياً إياك إلى محلّه (ملحّاً بإصرار عجيب أن تأتي بـ «لابتوبك» معك!) ليسحب منك الكلام، بينما عنصر الأمن يقف على باب المحل مستمعاً، ليواجهك بما قلت في التحقيق.

لِمَ يتحوّل الأصدقاء فجأة إلى مخبرين؟

هل تمّ الضغط عليهم في هذه اللحظة؟ أم هم أساساً مخبرون ويتعاملون مع الأمن منذ زمن بعيد دون أن تدري؟

هذا الذي سمعتما معاً، في أيام الصبا الباكر، قصائد مظفر النواب التي تهجو المخبر «أنت يا دوب حذاء»، يصبح مخبراً!

أكاد أضحك من هول المفارقة. متى بدأ ذلك؟ متى بدأت رحلة تحولاته؟

في الزنزانة سأفكر طويلاً في الأمر، وأعيد التفكير بكل محطات العمر الماضية، وفي عملية التذكر هذه سأكتشف أن ثمة إشارات لم أنتبه إليها سابقاً، فالأحداث الصغيرة لا تُقرأ جيداً إلا حين توظّف في إطار رؤية أوسع، فما يبدو تافهاً ولا معنى له يصبح فجأة هاماً وجزءاً من لوحة كبيرة.

في غمرة العديد من الأحاديث، كان المخبر ينفي التهم وبعض التصرفات عن الأجهزة الأمنية، وكنت أظن أن الأمر مجرد رأي شخصي!

وكان يقوم فجأة بالحديث عن بعض الأمور والتأكيد عليها، خاصة في أوقات الأزمات (انتفاضة الكرد 2004 واغتيال الحريري 2005)، هل كان ذلك ضمن إطار إطلاق الشائعات وإدارة الرأي العام؟ هل كان صديقي/ مخبري واحداً من أولئك الذين تدرّبهم السلطة على إطلاق الشائعات، بُعيد كل أزمة ليكونوا جيشها اللامرئي، وهل لعب أيضاً دوراً في بث الشائعات حولي والكتابة على جدران منزلي؟

اليوم، إذ أعيد التفكير، أتذكّر أنه أدى خدمته الإلزامية في فرع أمن. أتذكر يومذاك أن جلّ تفكيره كان يتمحور حول الانتقال إلى مكان يستطيع أن يعمل فيه بعد الظهر ليعيل نفسه، فهل بدأت رحلة انهياره من هنا، إذ بمجرد الدخول يصعب الخروج إلا مخبراً أو ضابط أمن سرياً في إحدى المؤسسات ليقدّم تقارير عمّا يجري فيها؟ فعلاً، بعد ذلك ستتيسر أموره ويتوظف ويفتح محلاً. هل للأمر علاقة أم مجرد مصادفة بحتة؟

أفكر دائماً أن ثمة بدايات تحدّد النهايات سلفاً، إذ بعد الخطوة الأولى في مسار ما يصعب الانسحاب دون التلوّث والانحدار التدريجي إلى الهاوية. هذا أمر تعلّمته من الكتب والثقافة، وكثيراً ما أحجمت عن خطوات أولى أو تراجعت في اللحظة المناسبة رغم الإغراءات، لأني أدرك مدى صعوبة الحفاظ على نقاء الروح في مؤسسات صمّمت أساساً لتعليب الإنسان، سواء كانت مؤسسات أمنية أم ثقافية، فهل كانت خطوة صديقي هذه، وهو يبحث عن كيفية إعالة نفسه، خطوة انحداره الأولى؟

هذا يعطي فكرة عن كيفية عمل الأجهزة التي تحوّل كل من يخدم فيها إلى مخبر احتياط، حتى بعد تسريحه أو تقاعده، تعيد استخدامه عند أي أزمة، فيصبح لديها جيش من المخبرين بأقل الخدمات البسيطة: غضّ نظر عن فساد صغير، بسطة دخان، تهريب، محل بلا رخصة.. وهؤلاء، لجهلهم، يستقوون بالسلطة، وأغلبهم من منابت فلاحية فقيرة، فتكون المقايضة: لقمة الخبز مقابل تقارير، والأسوأ أن يتقمص هذا الفقير

المعدم روح المؤسسة، فيضاف شعوره بالقوة إلى الجهل والغطرسة، فتكون أمام أسوأ النماذج التي يذهب ضحيتها ما بات يعرف في سورية بالتقارير الكيدية. وهؤلاء تستخدمهم السلطة في مراقبة مجتمعها، بزرعهم في المحلات والطرقات والأكشاك وبسطات بيع الدخان والملابس، وكأنهم مواطنون يبحثون عن لقمة خبزهم، ليكونوا عين السلطة ومطلقي شائعاتها التي تسمّم المجتمع وتهزّ مفاصله.

آه يا أمي!

لو تعرفين أن هذا الشخص الذي أطعمته يداك هو من وشى بي؟

لو تعرفين أنه هو من حرمني منك في عيد الأم (اعتقلت قبل يومين من عيد الأم بتاريخ 2011/3/19) الذي كنت قررت المجيء من دمشق بسببه، فوقعت في فخ الأمن والأصدقاء الخونة وقلبي الضعيف نحوك! وذهبت في رحلة اعتقال وتحقيق ستستمر سبعة وعشرين يوماً، لأخرج بفعل سواعد المتظاهرين الذين أكملوا الدرب نحو الحرية ودفعوا السلطة لإطلاق سراحنا رغماً عنها، سعياً منها لاحتواء التظاهر، وإلا لكنّا بقينا سنوات، وكان «الدبّان الأزرق» لن يعرف مكاننا، كما قال لي أحد المحققين.

عيد الأم: هو العيد الوحيد الذي كان يعنيني من كل أعياد السنة، والذي كنت حريصاً طيلة أيام عمري على أن أكون فيه بين يديك صباحاً، فحرموني منك، هل كانوا يعرفون برغبتي الداخلية تلك؟ وأرادوا حرماني عبر معاقبتي بك؟!

لحظة اعتقالي، لم أكن أفكر في أي شيء سواك، بل حتى العقل الباطن كان يفكر فيك؟ وإلا كيف أفسر خروجي من المنزل لحظة سماعي بوجود دوريات أمن في القرية نحو منزل أختي؟ ألم يكن ذلك كي أجنّبك رؤية منظري لحظة الاعتقال؟ فتحمّلت أختي وبناتها/ الأقمار الأربع هذا المنظر

المهين خوفاً وبكاءً وجزعاً وتقصّفاً رأيته في عيونهم لحظة طرقهم الباب، فكأني كنت أرى وجهك في وجوههم الخائفة والمشفقة علي في آن: وجهك الأصفر الخائف، وجسدك الذائب الضعيف المتقصف خوفاً ورعباً عليّ، حين استدعيت مرة للتحقيق بسبب كتابي «خطأ انتخابي» (2008)، فقد جاء العناصر ووقّعوني، في المنزل أمامك، على طلب الاستدعاء للتحقيق في اليوم التالي، وإلا لما كنت أخبرتك أساساً.

يومذاك استيقظت قبلي!

وهل نمتِ أساساً؟

أنا متأكد أنك لم تنامي ليلتئذ، لأني أنا أيضاً لم أنم. كلانا تحايل على الآخر كي يوهمه بأنه غير خائف، في حين كلانا كان يتظاهر بالنوم في فراشه مغمض العينين، قلق الذهن، جزع القلب مما قد يحصل غداً في التحقيق؟ فمجرد الذهاب إلى التحقيق في فرع أمني في هذا البلد اللعين، قبل الثورة وفي ظلها، يعني أن يسكنك الخوف حتى نقيّ العظام، وتقف بمواجهة العدم/ المجهول دون سند. وهذه كانت مهمتهم التي نجحوا فيها طوال عقود: زرع الخوف في العقول والأرحام، لأن الخوف يسلب شخصيتك ويحوّلك إلى كائن ضعيف هش؟

لم ننم ليلتذاك يا أماه، ولم يقل أحدنا للآخر ذلك، كنتُ أفكر بك وبما سأسببه لك من آلام وحياة تعيسة فيما لو غبت في غياهب تلك السجون.

وكنتِ تفكرين بما ينتظرني من آلام وعذاب سمعت بها عمن يدخل متاهات الموت تلك؟

كلانا تجاهل الأمر، فليس وقت العتاب الآن، لأن اللحظة لا تسمح بذلك! هل يمكن أن نعاتب من يذهب إلى بوابة الموت، مدركين أنه قد لا يعود؟ أم أنك لم تعاتبيني في تلك اللحظة التي ينهشنا فيها الندم، لإدراكنا بأن الوقت فات، ولم يعد ينفع أي كلام؟ فلتكن آخر لحظاتنا: وداعاً هيّناً!

مع الفجر، نهضتِ من الفراش قبلي، ولم أكن غفوت بعد. تجاهلت استيقاظك (عفواً نهوضك!) بعد أن نظرت إلى الساعة، غطيت رأسي بالحرام هرباً منك، أو تحايلاً عليك، وتركت فسحة نظر صغرى أمام عيني لأراك أو أودعك منها: اقتربت مني، وقفت بجانبي، نظرت إلي: سمعت قلبك يئن ويُعصر، فأنَّ قلبي وانضغط حدّ انعدام التنفس؟ سمعت شهيقك الميت في رئتيّ وأنت تستحضري أوليائك الصالحين وتدعين لي، متوسلة إياهم أن يعينوني في رحلة الموت هذه، وأن يحموني من جلاوزة اليوم. أولئك الأولياء وأدعيتك، سأكتشف بعد اعتقالي أنك أسكنتهم في لا وعيي، حين يحاصرني اليأس في زنزانة فرع تحقيق المخابرات الجوية في دمشق.

رأيتك من ثقبي في البطانية والخوف يطبع محيّاك تتجولين في البيت، تقتربين مني وتبتعدين، تريدين إيقاظي لتقضي معي وقتاً أطول، وتمتنعين حين تفكرين بأني يجب أن أشبع النوم لأني قد لا أنام هناك!

قلقك وشعوري بالذنب دفع الدموع إلى عيني: بكيت وبكيت وبكيت يومذاك، يا أماه، دون أن تعرفي بي. ولم أكن أبكي عليّ بل خوفاً عليك، وشعور الندم يأكلني لما قد أسببه لك.

وكيف لا أبكي، وأنت المرأة التي علّمتني النضال على طريقتها (رغم محاولتك إبعادي دوماً عن النضال السياسي) حين ناضلتِ؟! ونحتِّ في صخور الحياة لتربي خمس بنات وأنا، مذ توفي والدي حتى اليوم، إذ كانت كبرانا بعمر الرابعة عشرة. ناضلتِ وغامرت وتحمّلت الذل والهوان لكي نحيا ونتعلم ونقرأ ونشبّ إلى الحياة!

كيف لا أبكي، وأنت الفلاحة التي توحّدت مع الأرض، كي تنتزع من أحشائها خبز كفافنا؟ ودفعت في ما بعد ثمناً لذلك إحدى عينيك التي اضطر الطبيب لنزعها حفاظاً على الأخرى ونحن نبكي دماً عليكِ؟!

كيف لا أبكي يا أماه، وأنت التي حين فطنت يوماً أنه لا يوجد خبز لنأكل، استيقظت ما قبل الفجر ونزلت إلى الأرض البعيدة عن القرية لتلتقطي

حبات الزيتون من تحت الشجر التي لم ينتبه لها أصحابها، بعد أن قطفوا مواسمهم حبة حبة، لتعودي وتبيعيها في القرية لتشتري الخبز ونأكل دون أن نشعر بذلك إلا حين قصصت لنا الأمر، بعد أن كبرنا؟

كيف لا أبكي، وأنا الذي عاش طفولة الفقر، ففي مرّة حين خرج جرابي من مقدمة حذائي المفتوح، وطلبت منك أن تأتي لي بآخر، طلبتِ مني الانتظار حتى نهاية الشهر، ولم أنتظر لأن طلاب المدرسة كانوا يضحكون عليّ في الصباح ويعيّروني، وحين عرفت ذلك اشتريت الحذاء مباشرة ودون تردد، ودون أن أعرف من أين استدنت ثمنه؟

كيف لا أبكي، وأنت التي طلبت منك أختي يوماً أن تعطيها عشر ليرات لكي تدفعها في المدرسة «نشاط وتعاون»، فقلت لها: «ليس في جيبي سوى خمس ليرات وسأعطيها غداً لمحمد لكي يذهب بها إلى المدرسة»؟

بعد أن جفَّ بكائي، نهضت، وحاولت إضحاكك دون أن أفلح، فلبست ثيابي وقبّلت يدك راجياً أن لا تكون القبلة الأخيرة.

يومذاك مرّ التحقيق على خير، واكتشفت خلاله أن السائق الذي طلبت منه أن يجلب لي النسخ من دار الساقي قد «قام بواجبه» على أكمل وجه، ووضع نسخة في فرع أمن الدولة، ففهمت مبكراً كيف يعمل هذا الجهاز الأمني الأخطبوطي، الذي يحوّل الجميع إلى مخبرين، بمساومتهم على لقمة عيشهم، فيجنّد الأطفال وسائقي التكسي وبائعي اليانصيب وأصحاب المحلات والبسطات وبائعي الدخان، لكي يراقب مواطنيه!

ولكن الطامّة الكبرى كانت حين مرَّ التحقيق بسلام وخرجت من الفرع، وعدت إلى المنزل، وفتحت باب الصالون، فرأيتك بجانب المدفأة: كتلة لحم صفراء، هيكل امرأة، عينين يملؤهما اليأس والفراغ، قلباً يعيش لحظة فاصلة بين الحياة والموت، قلباً دفعه فتحي للباب باتجاه الحياة مرة أخرى، ليبدأ اللوم والتقريع الذي تحمّلته عن طيب خاطر، لأنه كان مؤشراً لعودتك إلى العلاقة الطبيعية بيننا، إذ لم تعرفي يوماً أن تعبّري عن حبّك

لي إلا من خلال لومي وتقريعي الدائم، وهو الأمر الذي كان مصدر ألم لي في طفولتي، ومصدر رضا وحب في كبري، بعد أن عرفت أن لومك هو تعبير عن الحب والتعلّق بي على طريقتك.

هذا التعلّق الذي كثيراً ما شعرت بأنه قيد، وتمنيت لو أتمكن من كسره وتجاوزه، لأن الكثير من القرارات في حياتي أجّلتها كرمى لك، أو دَوزنتها وفعلتها بشكل سري، وبكثير من الحذر، كي لا أعرّض نفسي للاعتقال، إذ كنتِ قيدي وحريتي في آن: قيدي الذي حرمني من فعل ما أحب وأجد نفسي به، وحرّيتي حين كان قيدك كابحاً عن الانجراف، فربحت حرية ولو شكلية في سجن كبير، يكفيني أن أرى وجهك وخوفك لأبقى فيه، خاصة أنك كنت تتسلحين ضدي بماضي والدي الذي كانت تصرفاتي تذكّرك به، وتخشين أن أسلك دربه، إذ كان والدي شيوعياً ومراقَباً على الدوام من المخابرات وأهل القرية.

تحدثني والدتي أنه في ذكرى ميلاد ثورة أكتوبر السوفياتية (1917) في الستينيات أو السبعينيات، قام هو ورفاقه بإشعال دواليب على كامل المرتفعات المحيطة بالقرية احتفالاً بالمناسبة، فاعتقل، وعاد و«أرجله موّرمة». وإذ أتذكر دوماً تلك الحادثة التي كانت تسردها أمي كتحذير، كي لا أعذّبها كما عذبها كثيراً، وفق قولها، أفكر في ما إذا كان دربي تكملة لدربه، رغم أني لم أره يوماً، إذ كانت أمي حاملاً بي في الشهر الثالث حين توفي، فأشعر بشيء من الفخر والنضال المتراكم جيلاً بعد جيل. إلا أن هذا الفخر محفوف بنقد لا يرحم، إذ كثيراً ما تساءلت: لِمَ يحتفلون بعيد أكتوبر وليس بأعيادهم الخاصة؟ هل كانت التبعية للسوفيات لهذه الدرجة؟

وجهك يا أمي الذي رأيته في ذلك اليوم، بعد عودتي من التحقيق، سيُطبع في ذاكرتي إلى الأبد، وسيبقى ملازماً لي وكابحاً على الدوام من جنوحي نحو أي فعل معارض بشكل علني، إذ كان لسان حالي يقول: لن أكون سبباً في تعذيب هذه المرأة، وما على الوطن إلا الانتظار!

وفعلاً انتظر الوطن إلى حين اندلاع الانتفاضة السورية في آذار عام 2011، التي بدأ التحضير لها منذ شهر شباط بتظاهرات الأصدقاء والناشطين أمام سفارات تونس ومصر وليبيا، تضامناً مع انتفاضات شعوب هذه البلدان، التي كانت تدريباً ومحاولة جسّ نبض الشارع والسلطة من جهة أخرى.

خلال شهر شباط سأعيش صراعاً وتمزقاً مجنوناً بين واجب الوطن والرغبة الداخلية العارمة في التغيير والفعل والتحدي الناجم عن الشعور بأننا أمام لحظة استثنائية للتغيير، بعد خيبات التغيير السابقة في ربيع دمشق (2000) وإعلان دمشق (2007)، والوفاء لوجه أمي الذي لا أريد أن أراه مرّة أخرى بهذا المنظر الذي رأيته به سابقاً، فلحظة أمزق حجب الخوف، ولحظة أخرى يمزقني الخوف الذي كنت دوماً أنتصر عليه في اللحظات الأخيرة.

هذه طبيعة شخصية تمزّقني وتحيّرني، ولم أفهمها حتى هذه اللحظة، إذ تنبع مني تصرفات أكون اتخذت قراراً بعدم فعلها. ولكن تفسيرها من وجهة نظري أنها قراراتي الشخصية التي أخفيها في غياهب اللاشعور نزولاً عند شعور خارجي ليس مني، ليطغى في نهاية المطاف اللاشعور الذي أقمعه وينتصر.

وهو أمر يلازمني منذ الطفولة، إذ كنت خجولاً ومسالماً، وتأتي لحظات تبدو مني شجاعة تفاجئني قبل أن تفاجئ غيري، فمرّة أصرّت الآنسة، حين كنت في الصف الخامس، على أن نعمل المذاكرة اليوم في حين أن موعدها بعد يومين، الأمر الذي دفعني لأن أكتب لها على ورقة الامتحان: السؤال الأول: «آنسة، أنت قلت لنا إن المذاكرة يوم السبت وأنت تجرينها يوم الخميس، وهذا ظلم!».

الجواب الأول: «آنسة، أنت قلت لنا إن المذاكرة يوم السبت وأنت تجرينها يوم الخميس، وهذا ظلم!»، فقامت الآنسة بعد ذلك بضربي

وإيقافي على رجل واحدة باتجاه السبورة، مع رفع رجلي ويدي، وحوّلتني بعد ذلك إلى المديرة، التي استغربت إقدامي على هذا الأمر وضربتني أيضاً.

حين أفكر في هذه الحادثة اليوم، أشعر بأنه جوهر الاستبداد المتكوّن في العقل قبل أن يتكوّن في السلطة، فالنظام المدرسي سلطة تلعب فيه المديرة دور القائد، والآنسة دور المنفذ، فحين تجرأ أحد على مساءلة سلطاتهم، كان الرد هو العنف، بدل حل المشكلة.

وفي حادثة أخرى: قررت مرّة أن أعمل وأكسب مصروفي من عرق جبيني وكنت وقتئذ في الصف الحادي عشر، فالتحقت بورشة عمال لرصف الحجارة على أحد الطرقات في القرية، من الساعة الثامنة صباحاً إلى الرابعة بعد الظهر. وبعد عمل يومين متتاليين لم يخبرنا مدير المشروع عن الأجر الذي سنتقاضاه عن كل يوم، وحين أصررنا على معرفة ذلك، رفض، الأمر الذي دفعني في اليوم التالي لجمع العمال وإخبارهم بأننا لن نعمل اليوم إلا بعد أن يخبرنا بأجرنا، ووافق جميع العمال على ترك العمل إن لم يقم بذلك. وحين جاء المدير وسأل لماذا لم نبدأ بالعمل، قلنا له بأننا نريد أولاً أن نعرف أجرنا، وأننا لن نعمل دون ذلك، فكان أن ردَّ بتعالٍ: «من لا يريد أن يعمل فليذهب!»، فأدرت وجهي ومشيت فوراً، وفوجئت بأنه لم يتبعني أحد إلا شخص واحد، وتعلّمت الكثير من «احتجاج العمال الفاشل» هذا، ومنه أن الكلام شيء والفعل شيء آخر، وأن حاجة العمال للأجر، في ظل عدم وجود بديل، تدفعهم لتقبّل الذل والاستغلال، وأن الوعي بالقضية المناضل لأجلها شرط ضروري لنجاح أي فعل ثوري أو احتجاج، إضافة إلى التنظيم الجيد.

فحين أعلن عن أول موعد للتظاهر أمام البرلمان في الخامس والعشرين من شباط (2011) لم أكن أنوي الحضور نهائياً، لأن وجه أمي كان يحاصرني، إلا أنني في اليوم ذاته وبشكل لا واعٍ، حين نزلت من الحافلة (إذ كنت يومذاك خارج دمشق) أخذت سيارة أجرة نحو مقر البرلمان،

ولا أعرف إن كان الأمر بداعي الفضول أم بدافع داخلي للمشاركة، وحين وصلت لم أجد أحداً: شارع شبه خالٍ، فركنت لليأس وعدت إلى الفيسبوك الذي كان يحفل بعبارات السخرية من ثورة السوريين الفاشلة! لتبدأ أسئلة محيّرة من نوع: ألم يحن وقت التغيير؟ هل الشارع السوري مختلف؟

يوم الثالث عشر من آذار (2013) جاءني الصديق الشاعر عمر سليمان، وقال لي: «محمد يوجد مظاهرة في الخامس عشر من آذار، ستكون بجانب تمثال صلاح الدين القريب من مدخل الحميدية الساعة الثانية عشرة ظهراً، وسيأتي عدد من الأصدقاء من المدن الأخرى، فهل تشارك؟».

وحين سألته عن العدد الذي يتوقع حضوره، قال لي: نحو 500 شخص، فقطبت جبيني وقلت له: «هذا يعني أنه سيأتي مئتان، وهذا انتحار، لأنه في مكان كهذا يجب أن يكون العدد على الأقل ألفين!».

ولكن مع ذلك قلت له سأشارك، ولا أعرف حتى اللحظة لماذا قلت له سأشارك، ونسيت وجه أمي الذي سيحاصرني لمدة يومين متتاليين إلى أن حلَّ الموعد المحدد، وكنت في عملي، فاتصلت بعمر ليخبرني أنه يقف في المكان المحدد ولا يوجد أحد حتى اللحظة، فلحقت به بعد ربع ساعة وتجولنا في الحريقة والحميدية وتمثال صلاح الدين دون أن نحظى بالمظاهرة التي كان المسؤولون عنها غيّروا مكانها إلى الجامع الأموي، ليخرجوا من هناك.

وحين سألت «عمر يوسف سليمان» عن «عمر إدلبي» الذي جاء برفقته من حمص، قال إنه ذهب إلى الأمويين لأن ثمة من نقل المظاهرة إلى الأمويين، كما قرأ على الفيسبوك! لندرك أنّ ثمّة تخبّطاً كبيراً وغير مسؤول في التنظيم.

ولكن يبدو أن التخبط كان مفيداً، لأن الانتشار الأمني المخيف الذي كان موجوداً في المنطقة يدلّ على أن الأمن كان لديهم علم بأن ثمة مظاهرة

ستخرج هنا، لأن الباصات الكبيرة كانت جاهزة والعناصر منتشرون على سطح البناء الملاصق لمدخل الحريقة، فعدنا أنا وعمر أدراجنا إلى مقهى الكمال، حيث التقينا عمر إدلبي على بابه ودخلنا، مع شعور دائم بأن ثمة من يراقبنا، لأن سيارة بيضاء، فيها ثلاثة رجال اشتبهت بها حين كنّا أمام المقهى، وهو أمر كان صحيحاً كما سأكتشف من التحقيق لاحقاً بعد اعتقالي الذي تمّ بناء على مظاهرة لم أشارك فيها، بل كنت أنوي المشاركة فيها! لنكون أمام نظام يعتقل البشر بناءً على ما ينوون فعله وليس على ما فعلوه، عدا عن أن هذا الفعل يعتبر أمراً طبيعياً في كل أنحاء العالم، وهذا وحده يكفي لإسقاط نظام يفكر بهذه الطريقة!

من لحظة وضعي في السيارة، بعد إلقاء القبض عليّ في منزل أختي، وأنا أفكر بك وحدك يا أماه. لم يكن يعنيني وضع اعتقالي بقدر ما عناني شعوري بالندم أن الاعتقال حصل قبل عيد الأم، الذي سيكون أول عيد أغيب فيه عنك!

بعد وصولي إلى الفرع وانتهاء جولة التحقيق الأولى، ووضعي في المنفردة في فرع المخابرات الجوية في طرطوس، لم أفكر بأي شيء سواك، واستحوذ عليّ تفكير يقينيّ أنني سأخرج قبل عيد الأم، لأني لم أكن أعرف، بما يكفي، طبيعة هذا النظام المستبد، الذي تبقى معرفتك به قاصرة ولا تشعر بثقل وطأته وجنونه واستبداده إن لم تلمس بخوف القلب وهلع الروح تلك الأقبية المجنونة، ولو لأيام، لأن ما تقرؤه في الكتب عن تجارب المعتقلين لا يوصل إلا أقل القليل من جنون تلك التجارب، لتأخذك الأسئلة باتجاه الفارق بين الكتابة والواقع، وإلى أي حد يمكن للكتابة أن تعتبر أمينة للواقع إن كانت عاجزة عن نقل جنون تلك الأقبية كما هو، جنون جعلني أفكر وأسأل: كيف تمكن أولئك الذين صمدوا في تلك الزنازين ثلث قرن أن يخرجوا منها أحياء؟

كلما هربت باتجاه أسئلة أخرى في ليل المنفردة كنت أعود إليك يا

أماه، وهذا اليقين الواهم الكاذب بأني سأخرج في عيد الأم يسيطر عليّ، ربما بفعل أن التحقيق في يوم 2013/3/19 وفي اليوم التالي 2013/3/20 كان خالياً من أي عنف في فرع طرطوس، إلا لؤم أحد العناصر الذي كان واضحاً أن التعليمات بعدم ضربي هي وحدها من يمنعه من إيقاع الأذى بي، الأمر الذي جعل يقيني كبيراً في ليل 20 آذار أن خروجي سيكون يوم غد لأقبّل يديك، ولهذا نمت مطمئناً إلى أن أيقظني العنصر في صباح اليوم التالي مما عزز يقيني بالخروج، ليأخذني إلى التحقيق لأواجه رئيس الفرع الذي أخبرني أنني إن لم أعترف سأحوّل إلى فرع التحقيق في دمشق، فبقيت عند كلامي نفسه ظنّاً مني أنها وسيلة ضغط ليس غير، وأُخرجت إلى عند العناصر الذين قيّدوني وعصبوني، وعاد العنصر اللئيم ليمارس ضغطه عليّ، قائلاً: «ولك ياحمار، اعترف أحسن ما تتحوّل على فرع التحقيق بالشام، لأن هونيك ما رح تعرف القتل من وين رح يجيك، والله نحنا أودام تجاهن!»، وفعلاً كان كلامه صحيحاً، رغم أني لن أتعرض لضرب شخصي ومباشر، إلا أنّ ما سأراه لاحقاً سيعزز من قناعتي بأن الكتابة لا شيء يذكر أمام جحيم الواقع.

إلا أن وهمي القاتل بأني سأخرج وأن كلامهم ليس إلا من قبيل الضغط بقي مسيطراً عليّ، خاصة أنهم طلبوا مني تدوين اعترافاتي على ورقة، وهو ما ذكّرني بأني كتبت الأوراق نفسها أثناء التحقيق في فرع أمن الدولة ـ طرطوس عام 2008، إلا أن عملية توقيعي على الأمانات مرة أخرى ووضعها في ظرف أمامي أدخل الشك إلى قلبي، مترافقاً مع تناهي عبارات من نوع: «مين رح يطلع عالشام».. «إجا الشوفير ولّا بعد»، التي كنت أسمعها، وأنا مطمّش العينين ومقيّد اليدين إلى الخلف ومرمي على الأرض ككلب في غرفة العناصر، إلى أن أنهضني أحد العناصر، وأخرجني من الغرفة باتجاه سيارة، أُجلست في مقعدها الخلفي، وبجانبي عنصر مزود بكلاشينكوف قيّد يديّ إليها، وفي المقدمة السائق ورجل أراه للمرة الأولى، يبدو أنه

الأعلى رتبة بينهم من كبر سنه. خرجت السيارة من الفرع، وأنا أعابث الأمل بأنني سأخرج، وأنهم سيتركونني في مكان ما، كما قرأت في الكتب، ويذهبون، لأتابع طريقي نحو القرية!

إلا أن إزالة العصابة عن عيني بعد الخروج من المدينة طرطوس، واقتراب السيارة من الخط الدولي باتجاه دمشق، جعل قلبي يخفق بشدة خوفاً، وراحت صورة أمي في ذهني تضيع بين غبش وصحو، مع انتعاش اليأس متقدماً باتجاه الأمل/ اليقين الكاذب الذي تملّكني بإمكانية وجود رحمة أو تفكير بعيد الأم في هذه الأماكن، واختفى كل الأمل مع سلوك السيارة الطريق الدولي باتجاه دمشق، بدل أن تذهب باتجاه بانياس، وغاب وجه أمي نهائياً عن صفحة روحي، ودخلت في قنوط عميق، وشعرت بروحي تصمت وعقلي يغيب لبرهة، بفعل المفاجأة المفجعة التي صدمت بها، وكأني اعتقلت للتو! عشت في الخوف، وهمدت مفكراً في ذاتي، بعد أن استحوذت أمي على تفكيري طيلة اليومين السابقين، مفكراً بما ينتظرني في الفرع الذي خوّفني منه العنصر، مقدّماً إياه على أنه الجحيم الذي نسيه اللّه على الآرض!

على طول الطريق، من طرطوس إلى دمشق، ثمة دمعة معلّقة في سقف العين، دمعة مغادرة الحياة باتجاه مجهول ما، موت ما.

دمعة تأبى النزول، وتكابر خوفاً وخجلاً من العناصر الذين لا أريد لهم أن يشتمّوا رائحة ضعفي وخوفي الذي تضاعف آلاف المرات.

يا إلهي من أين يأتي هذا الخوف؟ وكيف يولد؟ أين يعيش؟

يوم خرجت من التحقيق في عام 2008 ظننت أن خوفي آنذاك هو أقصى خوف يمكن أن يصل إليه الإنسان. اليوم أكتشف أن الخوف الأول كان مجرد لعب أطفال، وفي معتقل فرع تحقيق المخابرات الجوية الكائن في المزة، حيث أذهب الآن، سأكتشف لاحقاً أن خوفي الآن هو مجرد لعب أطفال أيضاً.

آه، أيها الإنسان المجبول من طين، لو تعرف الطاقة الكامنة فيك وقدرتك على التحمّل لكنت نبي الأرض ولاستعضت عن اللّه في السماء، أليس لهذا طردك اللّه من جنته؟

ألم تكن تفاحة المعرفة هي ما أخاف اللّه منك؟ وها هي ذي «المعرفة» ذاتها يمنعها عنك وكلاء اللّه على الأرض؟ المعرفة التي لا يراد لك أن تعرفها، المعرفة القائلة بأنك تنتصر على الخوف بالخوف، و«داوها بالتي كانت هي الداء».

هذا الخوف المجنون يتربص بي، أحاول الهروب منه باتجاه الشوارع التي لن أمشي فيها بعد اليوم، باتجاه وجوه الناس، في السيارات التي تعبر بقربنا، دون جدوى. أشعر بنفسي قطعة قطن صغيرة متروكة لمهبّ الرياح: حزن قاتل يطرق الروح، وشعور بالتلاشي في العدم، يخرجني منه نشفان حلقي بفعل العطش، أقاوم كي لا أطلب من العنصر الذي يجلس بجانبي ويقيّد يدي إلى الكلاشينكوف الموضوعة في حضنه، إلا أنّ جفاف الحلق يضغط، فضعفت وطلبت منه الماء، تردد قليلاً، ثم قال لي: «ولك يا اللّه، ميشان تتذكّر إنو شرّبناك ميّة بقين!».

ولأني لم أتمكن من مسك قارورة الماء، بسبب تقييد يدي، قام بوضعها على فمي لأشرب، فشكرته وذهبت نحو التفكير فيه، وفي هذا النوسان بين «الخير والشر» فيه، وهو أمر سيجعلني أنتبه لحياة هؤلاء وتصرفاتهم في تلك المؤسسات الأمنية التي تقتل روح الإنسانية فيهم، لأتكلم عن ذلك فيما بعد. هذا ما يمنعني الآن يا أمي من الذهاب إليك في القرية، لأطمئنك أني لست «محمد ديبو» الذي مات في دوما، بل واحد غيري تقمّص روحي ورحل، لأبقى أنا حيّاً بعد أن فداني بروحه، أو ربما استجاب اللّه لدعائك الذي أعرف أنه لا يتوقف يومياً لي، لأني ما زلت أتذكر عاداتك كل ليل أو فجر، وأنت تدعين وتبتهلين للّه أن يوفقني ويمنع الأذى عني، دون أن تعلمي أنك تبتهلين لإله كاذب، وأنه تحالف معهم يا أماه، وبات يتفرّج على موتنا!

أماه!

عاطفتي نحوك أوقعتني في فخهم، فهل ستفعل للمرة الثانية، لو ذهبت إليك لأقبّل يديك، وأطمئنك أني لم أمت بعد؟!

منذ خروجي من القرية وأنا أعيش تحت هاجس صراع ممزق. حدّه الأول شوقي الدائم إليك، وحدّه الثاني الخوف من الاعتقال، فعلى أي جانب أميل؟

دعيني أعترف لك، أن ما سبق ليس السبب الوحيد الذي يمنعني من الذهاب، بل تخوّفي من ردة فعل أهل القرية الذين حوّلوا فرحتي بالخروج من المعتقل إلى كابوس، مجهضين الأمل، ومطلقين إشارات سوداء تنبئ بمستقبل قاتم لما هو قادم، بما يعكس خوفهم المزمن من السلطة، ومن الآخر المختلف طائفياً، وهو ما يفسر رضوخهم المطلق للسلطة، حين كتبوا بإيعاز منها على جدران منزلي وجدران القرية: «يسقط الخائن العميل محمد ديبو»! مرفقاً بإشاعات مجنونة بدأت منذ لحظة اعتقالي واستمرت إلى لحظة خروجي بأنني عميل وجاسوس لإسرائيل، وأنني أقبض من بندر بن سلطان، وغيرها من التهم التي لفقتها السلطة للجميع ورمتها في فضائهم الاجتماعي كإشاعات، لتعزل الناشطين عن محيطهم الاجتماعي، بما ينذر بأن السلطة التي أطلقت سراحنا ضمن «مشروع إصلاح» كانت تكذب وتناور، عبر تقديم خطاب إعلامي يقول بأن الإصلاح قائم، في حين أن الدولة العميقة ممثّلة بالأجهزة الأمنية تثابر على عملها المعتاد بعيداً عن الأعين، ولكن هيهات!

أهالي القرية الذين دفعهم الأمن لكتابة ما كتبوا على جدران منزلي، بعد أن أقنعهم بصحة «شائعاته» المرفقة بتخويف مضاد من الآخر، أصبحوا كتلة خوف متنقلّة، تعكسها الوجوه العابسة بي والعيون التي تَزوِرني حين كنت أجلس على برندا المنزل، إذ لا يمكن أن أنسى يوماً ما عيون تلك الفتاة التي كنت أشتهي جسدها إبان مراهقتها، حين كانت تمر من أمام

منزلي، وإذ تمر اليوم وتراني على البرندا تعبس بحقد في وجهي، وكأني قتلت أباها، و تدير وجهها وتبصق على الجهة الأخرى!

من علّمك الحقد يا صبية؟ من لوّثك؟ من حوّل جسدك الشهي من كتلة شغف تحرّك الهواء أينما حطّت، إلى كتلة حقد متنقل؟ كم من الأكاذيب والشائعات لقّنوك وعلّموك؟

يوماً ما يا صبية ستكتشفين أننا كنا نبني مستقبلاً لأبنائك، وأننا كنا نناضل ليبقى جسدك ضوء إشعاع وأمل، لا مستقر حقد وخوف ونتانة.

ردة فعل الصبية لم تكن إلا الخوف متجلياً في هيئة امرأة، وهو الخوف الذي تعمّم على كل أهالي القرية الذين حوّلوا الإفراج عني إلى معتقل آخر، إذ بقيت لمدة شهر في المنزل دون أن أخرج منه، بعد أن رفضت أمي عودتي إلى دمشق فوراً، واضطررت للرضوخ لها، خوفاً عليها، وهو ما سمح لي بمتابعة وترصّد الخوف الذي عشّش في أرواح الناس، الذين لم يجرؤ إلا القلة منهم على زيارتي خوفاً من الأمن.

هذا الخوف القاتل الذي عرفت في المعتقل مدى قدرته على الإخصاء، رأيته في وجوه أهل قريتي ومن زارني منهم: إيمان مطلق برؤية السلطة دون أي استعداد لتشغيل العقل، نابع من وهم كاذب بأن ما يحق لهم لا يحق لغيرهم، وأن السلطة تقوم بحمايتهم من الآخر، معلّقين الأكاذيب على شماعة «اللي حواليه»، وعناصر الجمارك والأمن الفاسدين الذين سمحوا بإدخال السلاح إلى البلد، دون استعداد لنقاش هذه الرؤية حتى نهايتها، عبر طرح سؤال: لماذا هذا الفساد موجود؟ ولِمَ ليس هناك آلية لضبطه؟ وحال فشلت السلطة في ضبط أمن المواطن فماذا يجب أن نفعل بها؟

ثمة قفز على كل ما من شأنه أن يوصل إلى حقل الألغام الذي حفظوا حدوده التي لا يجوز تجاوزها طيلة عقود، بفعل المناورة القائمة بينهم وبين السلطة، لأن الحكمة السائدة هنا أنّ «الدولة ما بينعلق معها»، كما حاولت أمي أن تلقّنني منذ الصغر، وذلك بالتغاضي عن كل ما يمكن أن

يُتعب الرأس، إلى درجة التباهي فيما بينهم، بأنهم لا يتابعون «الجزيرة» أو «العربية» أو أي قناة أخرى غير القنوات الرسمية، رغم أنهم يكذبون!

وهذا ما اكتشفته خلال الأحاديث حين يزورني أحدهم، إذ يبدأ الحديث بأنهم لا يتابعون غير القناة الرسمية، لكنهم يناقشون حدثاً لم ينقله أحد غير «الجزيرة» أو «العربية» (اللتين كان لتغطيتهما دور سلبي بطبيعة الحال على الانتفاضة/ الثورة السورية)، مما يعني أنهم يتابعونها في السر ويقولون العكس في العلن! الأمر الذي يضعنا أمام حجم الخوف الذي تعيشه هذه الفئات، وهو خوف سيتضاعف يوماً بعد يوم، بسبب جنوح المعارضة نحو خيارات كارثية، ستدفع تلك الفئات للتعلّق أكثر وأكثر بالاستبداد، رغم معرفتها الضمنية بكل عيوبه ومشكلاته، لأنها لم تفهم مجتمعها ولم تسعَ يوماً لفهمه، ولم تغيّر من آليات عملها على مدى عقود طويلة.

في أحد الحوارات مع أحد قادة المعارضة، في شهر أيار عام 2011، كنّا نجادله أنه من الضروري جداً أن تبلور المعارضة رؤيتها لسورية المستقبل والبديل عن النظام السوري، إلا أن رأيه كان أن الأولوية لإسقاط النظام وبعدها نتفق، وحين قلت له إن الناس لن تذهب معك لإسقاط النظام دون معرفة إلى أين تتجه العربة! لم يعر الأمر انتباهاً، وها نحن أولاء، بعد ثلاث سنوات، لا نعرف بديلاً قائماً يمكن له إدارة السلطة، ولا نوعية النظام الذي تريده المعارضة! عدا عن أن غياب هذا البديل الديمقراطي ساهم بإخلاء الساحة السورية لتيارات التطرف التي كانت من أهم عوامل بقاء النظام.

رغم ذلك، فإنه من وجهة نظر واقعية يبدو أن حدود قدرة المعارضة على الاستشراف يبدو موضوعياً، بفعل العنف المسلّط عليها من جهة، وتكلّس «عقلها» وآليات عملها التي بقيت معلقة في مرحلة الثمانينيات من القرن الماضي، لأنها كانت معزولة أساساً عن التواصل مع المجتمع، بفعل الخوف المنتشر جماهيرياً من التعاطي مع المعارضة، ما حال دون قدرة المعارضة على رؤية التحولات الحاصلة في المجتمع، خاصة على صعيد

التطييف المستمر الذي كان يتصاعد على حساب البعد الوطني، عبر ممانعة وقومجية فارغة لا تريد منها السلطة إلا إضفاء شرعية على بقائها في الحكم، في حين أن آليات الضبط الطائفية الممسوكة سلطوياً/ أمنياً تفعل فعلها.

وهذا ما تجلى لي منذ بداية الانتفاضة، إذ اجتمعنا بتاريخ 2011/3/17 في مكتب أحد المعارضين في دمشق لمناقشة مدى إمكانية التظاهر، وما هو السقف الذي يحتمله الوضع السوري لنعرف ماذا نرفع من شعارات. وأثناء الحوار جرى التطرق إلى وضع أهل الساحل ومدى إمكانية انضمامهم للحراك أو لاً، فكان جوابي أنهم سيقفون مع النظام فوراً، في حين كان رأي المعارض أن لا، وربما يختلف الأمر (وفق وجهة نظره) بين أهل الساحل في اللاذقية الذين ينتمي لهم وأهل الساحل في بانياس الذين أنتمي لهم.

إلا أن الجواب جاء بعد يوم واحد من هذا الأمر، إذ أثناء سفري في اليوم التالي إلى بانياس، حدثت مظاهرة بانياس الأولى (2011/3/18) ونحن في الطريق إليها، ولدى وصولنا إلى المنطقة وصعودي باتجاه قريتي، كان واضحاً جداً أن الوجود الأمني يمنع أهالي القرى الذين يحملون صور بشار من النزول إلى المدينة، للوقوف بوجه المتظاهرين، وليس العكس. وحين اتصلت مع صديقي المعارض في المساء لأضعه بصورة الوضع، قلت له بأن أهالي القرى نزلوا! فقاطعني قبل أن أكمل كلامي: نزلوا للتظاهر معهم! فقلت له: لا، للأسف، بل لمواجهتهم، ولولا القوى الأمنية لحدثت مشكلة طائفية بدأت تباشيرها تلوح أساساً.

هنا في مقاطعة المعارض لي وقوله (نزلوا للتظاهر معهم) ما يعكس رغبته الشخصية بإضفاء ما يريد على واقع عصيّ على أن يكون كما يشاء، وهو أمر يمكن تعميمه على أغلب المعارضة السورية، التي أرادت إسقاط النظام من فنادق الدول الكبرى دون أن يكون لها أي امتداد على الأرض، بمعنى الامتداد الذي يجعل مما يحصل على الأرض مؤطراً في إطار رؤية

سياسية تجادل بين المناضل على الأرض والسياسي المناضل اتكاءً على ما يحصل على الأرض التي سمح لي سجني في القرية، بعد خروجي من المعتقل معاينتها بدقة على مدى شهر!

هل قلت سجني؟ وفي القرية؟

نعم، لقد كان شعوري بالسجن في هذا الشهر الذي عشته في القرية، بعد خروجي من المعتقل أقسى وأشد حدة من المعتقل؟ هل في الأمر مبالغة؟ قد يظن أحدكم هذا! لكن لا أبداً!

في المعتقل كنت أشعر أن روحي حرّة، وأن جسدي هو المقيّد فقط، أما هنا فأشعر أن روحي وجسدي وحلمي كلها مقيّدة ومعتقلة، إذ كيف تناضل لأجل من لا يريد الحرية؟ ولِمَ أدفع ثمناً باهظاً إن كان من تناضل لأجلهم وتعرّض نفسك للخطر لأجلهم يرون فيك خائناً وعميلاً؟ هل يستحق الفقراء الذين لا يجدون قوت يومهم أن تقف بجانبهم إن كانوا ضد أنفسهم؟

أسئلة كثيرة تؤرق أيامي وأنا أعاين أحوال الناس وردود فعلهم التي استثارها الوعي الطائفي الكامن.

كان صهري يدخل المنزل، وهو يقول (كان ذلك في نيسان، أيار 2011): «والله بدّن يدبحونا! والله ما رح يخلّو حدا منا!».

كان ثمة خوف دفين في داخله يخرج فجأة إلى العلن، خوف قادم من ماضٍ سحيق، عرفت السلطة كيف تفجره بإطلاقها الكثير من الشائعات التي غزت جبال الساحل من أقصاه إلى أقصاه، ليصبح الجميع مدجّنين في آلة الخوف الطائفية التي تديرها السلطة بذكاء قذر، وقد تعزز الأمر أكثر وأكثر بعد مقتل «نضال جنّود» والهجوم على حاجز للجيش قرب جسر بانياس، وتضخيم السلطة للأمر إعلامياً بشكل مقصود، وعدم قدرة المعارضة على التعامل سياسياً وواقعياً مع هذه الأحداث، عبر الرفض والمكابرة بأن «الشعب السوري واحد»، في الوقت الذي يعمل فيه النظام على تثبيت أسس اللعبة وفق ما يشاء.

اللحظة الصادمة لي آنذاك، والتي كانت مؤشراً حاداً ومبكراً بالنسبة لي إلى المدى الذي يمكن أن تبلغه الأمور، حين كنت أتحدث أنا وواحد من أصدقاء عمري في القرية، و الذي أعرفه منذ عشرين عاماً، إذ قال لي حين سألته عن الحل: السلاح! (وهو يعني السلاح لمواجهة العراعرة والسلفيين والسنّة الذين سيقتلون العلويين، وفق وجهة نظره).

ـ ماذا: السلاح! هل تمزح؟

ـ لا، السلاح هو الحل، هل ننتظر حتى يقتلوننا في بيوتنا؟

حينئذ أدركت كم المستقبل قاتم، إذا كان صديقي الذي يمتلك وعياً مدنياً، بحد أدنى، نسبة إلى أهل القرية الآخرين، يتحدث بمثل هذا الكلام، فماذا سنقول عن الآخرين؟

لم يكن صديقي يدرك أن كلامه هذا هو ما تريده السلطة وكل الجهات الخارجية ليكون هو وغيره من مواطني بلده وقوداً لحرب مجنونة، ستبدأ رحاها تدور ما دامت مقومات وجودها الداخلية موجودة في هذا الوعي بالذات لدى الطرفين!

هل قلت: الوعي لدى الطرفين؟

نعم لدى الطرفين، وهذا ما خبرته في المعتقل، ففي اليوم الأخير حين أخبرنا أنه سيفرج عنا، بدأ المعتقلون يبوحون لبعضهم البعض بما كانوا يخشونه أو يتكتمون عليه سابقاً، الأمر الذي أطلق حوارات كثيرة في الساعات الأخيرة من المعتقل، خضتها بكثير من الحرص، لمحاولة استكناه الوعي السائد ومعرفة اتجاهاته، لأنه طيلة الأيام التي قضيتها في المعتقل كنت أتأمل أمرين، وأفكر فيهما على الدوام، الأول: السجانون بما هم ضحية، لأن في ذهني رواية تريد البحث في ماهية السجان أكثر من المسجون، فكنت أرصد تحركاتهم، ردود أفعالهم، خوفهم، ضحكهم، إنسانيتهم المخفية في جوف الحقد الذي علّموهم إياه.

الثاني: المعتقلون الذين يأتون ويغادرون الزنزانة على خلفية التظاهر، إذ كنت أحاول البحث عن إيجاد روابط بين أفكار الحرية والديمقراطية والحوامل الاجتماعية لها، وعما إذا كان هؤلاء المتظاهرون يمثّلون هذا الحامل ويحملون الوعي اللازم لنجاح أية حركة ثورية.

في الزنزانة الجماعية التي نُقلنا إليها، والتي تضم نحو ثمانية وثلاثين شخصاً، معظمهم من المتظاهرين، كان الوعي السائد جنينياً بخلفية طائفية خجولة، تقول بأن «العلويين يحكمون والسنّة مظلومون»، إذ قال لي أحد الشباب الصغار (عمره 19 سنة) إن العلويين في بانياس يطلقون النار على السنّة، وحين أخبرته أن هذه المقاربة خاطئة وأن الأمور لا تقارب بهذه الطريقة، وأن الصراع هو صراع استبداد/ حرية، وليس سنّة/ علويين، بدا متفاجئاً ومشككاً في ذات الوقت، ولديه رغبة حقيقية في الفهم والمعرفة، وهذا ما فتح عيني على حقيقة مفادها أن هذا الشاب الصغير يعكس وعياً سائداً في نهاية المطاف، هو الوعي «المكوَّن» السائد اجتماعياً، فهذا الشاب الذي واجه المحقق بجرأة، حين قال له إن رامي مخلوف والدولة نهبوا أراضي داريا، هو نفسه من يعتقد أن السلطة عَلَوية، وأن الأمور تُحلّ باستلام السنّة مكان العلويين، ليختلط الوطني بالطائفي بالطبقي، ولأكتشف أننا أمام بنية اجتماعية سورية في حالة طائفية مستترة، فإن جاءتها نخب وطنية ستحملها باتجاه الوطنية، وإن جاءتها نخب طائفية ستأخذها باتجاه الطائفية والسلاح والجنون، وهو ما حصل، خاصة أن السلطة توفّر كل الأرضية اللازمة للخيار الثاني، الذي توهّم بعض أطياف المعارضة سهولته لإسقاط النظام[2]، مقابل وعورة الطريق الثاني الذي يعتمد البناء الوطني خطوة خطوة.

2- لمزيد من الاطلاع حول هذا الأمر يمكن قراءة بحثنا (الطائفية كعامل من عوامل النزاع الأهلي في سوريا) الصادر في كتاب «عوامل النزاع والسلم الأهلي في سوريا» الصادر عن مركز «المجتمع المدني والديمقراطية في سوريا»، والمتوفر في نسخة إلكترونية على موقع المركز.

وعي صديقي المتشكّل طائفياً بأن السنّة سيقتلونه، يقارب وعي هذا الشاب الذي يرى أن العلويين يقتلون السنّة في بانياس، ليكون الاثنان الأداة التي ستستخدمها السلطة وبعض أطياف المعارضة المأجورة للخارج، لإدخال السوريين في حرب ضروس.

نعم، لهذا كان سجن القرية أكثر ألماً وتعذيباً من معتقل المخابرات الجوية، لأنه فتح عيني مبكراً على صعوبة ما نحن مقبلون عليه، ولهذا يا أمي لم أعد إلى القرية مذ خرجت منها، ولهذا أنا مرتاح لأنك لم تسمعي بأن مواطناً سورياً آخر اسمه يشبه اسمي قُتل في دوما، وحتى لو سمعت لم أكن متأكداً بأنني سأذهب إليك لأطمئنك بأني حيّ، فلربما كنت اكتفيت باتصال هاتفي أو ربما كنت ذهبت كعادتي في اتخاذ قرارات مفاجئة في لحظة ما، وهل هناك أنسب من لحظة مواجهة الموت للقيام بحماقات كهذه؟

ألم أمت أساساً؟!

ماذا يعني أن يموت أحد يحمل اسمك؟ أليس هذا مقدمة لموتك؟

قضيت ثلاثة أيام أعيش مع الشهيد الذي أحمل اسمه، مضطراً للرد على كل الاتصالات التي جاءتني خوفاً من أن يفكّر الآخرون أنني أنا الميت، وخوفاً من وصول الخبر إلى أمي التي وعدتها بعد اعتقالي الأول أن أبقى عاقلاً، دون أن أفي بوعدي لها طبعاً. ولكثرة ما فرض الموضوع نفسه عليّ، بتّ أتساءل بيني وبين نفسي عمّ إذا كنت أصبت بهذيان الموت حقاً؟ أضحك ساخراً وأنا أفكر بانتقال الموت منه إلي.

مخبر في المعتقل!

«ضحية ذاته النذلة الصغيرة وضحيتهم في آن. هذا هو المخبر.
الذات التافهة الصغيرة (مخبر) تشكّل علقة (جهاز أمن سلطوي) لا ترتوي إلا من ضحايا مكوّنيها.
المخبر ذات تستحق الشفقة».

دخلت الزنزانة أنا ومحمد علوش والفلسطيني أبو براء ومخبر!

هل قلت مخبر في الزنزانة؟

نعم، ولقد نجحت خطتهم. هذا ما أدركه جيداً الآن، وأنا أستعيد وأفكر بتفاصيل اللحظات الأولى لدخولنا الزنزانة، فقد رُفسنا بعد انتهاء جولة التحقيق الأولى في فرع التحقيق في دمشق، وقال محمد علوش، بعد أن تعارف كل منا على الآخر: «أنا ما بدن ياني بدن صهري!».

«مين صهرك؟» سألته.

«عمر إدلبي»!

«عمر إدلبي صهرك؟ (ضحكت وتابعت) إي اللّه يلعنك، لكن تعا لهون!».

وبدأنا الثرثرة التي أخبرته خلالها أنني منذ يومين كنت أنا وعمر إدلبي وعمر سليمان في مقهى الكمال الصيفي. في اليوم التالي واجهوني في التحقيق بهذه المعلومة! التي كنت أخفيتها طيلة وجودي في فرع طرطوس،

فلم أكن أريد لهم أن يعرفوا أننا التقينا في ذلك اليوم، أولاً حماية للعمرين (إدلبي وسليمان)، وثانياً لكي لا يمسكوا أي طرف خيط، إلا أن الثرثرة المجانية في ليلتنا الأولى كانت مضرّة، لذا لا بدَّ لمن يعتقل أن يكون كتوماً جداً جداً في الأيام الأولى لاعتقاله، إن لم يكن هناك ما يدينه، لأنني إذ أدقق بالتفاصيل أكثر، سأعرف أن جمعهم لنا في زنزانة واحدة لم يكن عبثاً، خاصة أنني سأعرف فيما بعد أن الاتصال الذي أجراه عمر سليمان مع إحدى المحطات الفضائية، وتحدث خلاله عن وجودنا معاً في مواقع التظاهرة وفي مقهى الكمال، كان مرصوداً.

مقاطعة هذه المعلومات لديهم قادتهم لترتيب وضعي مع محمد علوش في زنزانة واحدة، وهو ما سيؤكده علوش، إذ رأى، أثناء التحقيق الأول، بعد إزالة العصابة عن عينيه، المخبر في الباحة الكائنة أمام غرفة المحققين، فقد كان المخبر وراءنا يتفرج علينا بينما نحن مطمشي الأعين. وهنا كان يجب على محمد أن يكون أكثر حذراً لأنه رآه، إلا أنه لم يتخيّل أنه مخبر بعد أن شاهده في الزنزانة، ثم إن ثرثرتنا المجانية بدأت بعد دخولنا الزنزانة فرحين!

هل قلت فرحين؟

نعم، لأن معايير الفرح تختلف هنا.

فرحين، بدخول الزنزانة للراحة بعد سفر من طرطوس إلى دمشق مقيّداً إلى الكلاشينكوف، انتهى بي مطمشاً في الممر الفاصل بين الزنازين لساعات، ثم لساعات أخرى في التحقيق وباحة المعتقل، تخللها محاولة رفعي فلقة، بعد أن تم بطحي أرضاً ورفع رجليّ، بعد ربطهما بقشاط الكلاشينكوف، إلا أن صرختي الخارجة من رحم الخوف بعد أن ضربوا سوطهم الأول، ومقاومتي إياهم، دفعت أحد العناصر للمجيء وانتشالي من بين أيديهم، وهو نفسه العنصر الذي قال لي عند الباب الرئيس: «لتعرف إنو نحنا عنا رحمة»، بعد أن أنقذني من تعذيب زميله، وهو نفسه الذي

سيكون حاضراً في التحقيق ليريني فيديو مروة الغميان وهي تحمل العلم في سوق الحميدية، ليسألني: «من هذه؟» دون أن أعرف.

المخبر سيبقى معنا في الزنزانة طيلة الأيام التي قضيناها في المعتقل، فانطبق علينا المثل الشعبي: «فوق الموتة عصّة قبر»، إلا أن كشفنا له منذ الأيام الأولى جعله في مرمى مراقبتنا الصارمة، فقد رأيناه في الليل ونحن نيام كيف يبلغ السجّانين عن كل شيء، الأمر الذي جعلنا نحذّر أي وافد جديد للزنزانة بأعيننا والإشارات مباشرة لعدم التحدث بأي شيء، إذ كانت خطته (كما فعل معنا) تقوم على الاستفراد بالوافد الجديد وسؤاله عن سبب وجوده هنا، وماذا فعل، وأخذ رأيه ليقدّمه في الليل للسجّانين أو أثناء خروجنا إلى الحمّام، ليُواجه المعتقل بما قاله من معلومات.

وكما حوّل زنزانتنا إلى قبر مغلق، قررنا بدورنا أن نسخر منه ونضحك عليه، فأصبحنا نحكي أمامه ما يود سماعه ويبعد عنا الشبهات، إضافة إلى محاولة تحوير ما يسمعه منا أثناء تسقّط بعض الكلام، خاصة أن «علوش» كان كثير الكلام، فمرّة بينما كان يسألني عما إذا كنت أعرف «فرج بيرقدار» أو «فاتح جاموس» أو «محمود عيسى» نهض المخبر من تحت البطانية وسألني: «مين فرج بيرقدار ومحمود جاموس؟!»، فقلت له: «هدول الشوفيرية يلي بياخدو الراقصة على الملهى!»، لأن علوش كان يحدثنا عن مغامراته في الملاهي الليلية التي كان يخترع بعضها لإبعاد الشبهات عنه أمام المخبر!

في الأيام اللاحقة حاولت أن أستثمر وجوده في الزنزانة لصالح التحقيق معي، إذ فجأة جاء السجان، وسألني عن عناوين اثنين من أصدقائي في القرية، الأمر الذي جعلني أعيش خوفاً وترقباً وقلقاً عليهم، إذ لم أكن أريد أن أكون سبباً في استدعاء أحد إلى تلك الأماكن القذرة، خاصة أن أصدقائي هؤلاء ليس لهم علاقة بأي شيء، وليسوا إلا أصدقاء طفولة وصبا.

لاحظ المخبر معالم وجهي المتغيّرة (فهو مدرّب على التقاط إشارات كهذه، كما اكتشفت خلال مراقبتي له وأسئلته لي بعد كل جولة تحقيق)، فجاء إلي وسألني عما يجري، وإذ رفضت الكلام أولاً، انتبهت إلى أهمية الأمر بعد دقائق، وخطرت الفكرة في بالي، فبدأت أشرح له الأمر، بأنني قلق عليهم، لأنهم أصدقاء طفولة وليس لهم أي علاقة بآرائي السياسية! وأنني أخشى عليهم أن يُظلموا بسببي (هل قلت آرائي السياسية؟!).

بقيت لمدة ثلاثة أيام قلقاً من احتمال استدعاء أي منهم، إلى درجة أنني كلما خرجت من الزنزانة باتجاه الحمّام كنت أحاول أن أترصد بعيوني وجوه المعتقلين المرميين في الممر، ورغم أنّ البطانيات المرمية عليهم تمنع رؤية ملامحهم، إلا أنني كنت أحاول تقدير الأمر من حجم الأجسام، إلى أن شاهدت في اليوم الثالث جسداً له حجم صديقي، فسقط قلبي في الممر، وإذ رفعت رأسي محاولاً التدقيق أكثر، ضربني السجّان: «عينك بالأرض يا حيوان!».

دخلت الزنزانة وملامحي تفيض أسى وداخلي يغلي، إذ ليس هناك أبشع من الظلم في العالم، فكيف إذا كنت أنت أحد أسباب ظلم أحد أصدقائك الذي ليس له علاقة بالأمر سوى أنه صديقك.

جلست في مكاني، وضعت البطانية على وجهي (كأني باللاشعور أتضامن مع صديقي المرمي خارجاً والمغطّى بالبطانية) ويداي تشدان الواحدة على الأخرى، وجسدي ينكمش حتى يكاد يتقطع، أما قلبي فكان في الحضيض.

بقيت هكذا لمدة سبع ساعات، إلى حين قدوم موعد خروجنا التالي إلى التواليت، إذ كنت مصمماً على التدقيق أكثر حتى لو ضربني السجّان، وبعد خروجي باتجاه الحمّام كانت البطانية منحسرة عن وجه المعتقل، ولم يكن صديقي، فكانت الفرحة تغمر وجهي إلى درجة أن جسدي كان يشع وأنا أعملها في التواليت! إلا أنني بعد عودتي إلى الزنزانة، شعرت بالخجل

من فرحتي هذه، لأن الموجود مكان صديقي هو مواطن سوري في نهاية المطاف ويستحق التعاطف. وحين لم أستدعَ إلى التحقيق لأواجه صديقي في الأيام المقبلة، عرفت أن كلامي مع المخبر ربما كان ذا فائدة! خاصة أن تقييم التحقيق على ما أعتقد يعتمد على مدى تقييمهم لصدق المعتقل، وهنا أعني الصدق بالمعنى الإيجابي، فأنا خلال التحقيق لم أخفِ توجهاتي وميولي السياسية، وإن كنت قد أنكرت ما له علاقة بالشق الميداني، فقلت للمحقق في آخر جلسة تحقيق (كان هذا في آذار 2011): نعم أنا مثقف وأطالب بإطلاق سراح السجناء السياسيين، وإلغاء قانون الطوارئ، وحرية تداول السلطة، ومكافحة الفساد، وإصدار قانون للأحزاب.. ومن بعدها لم أُستدعَ للتحقيق. وأغلب الظن أن هذا هو السبب الذي جعل المخبر يقول لي دوماً في الزنزانة: «والله أنت ياديبو وضعك صعب، الباقين ممكن يطلعوا بس إنتا ما بعرف!».

إسقاط النظام في زنزانة المخابرات الجوية!

«كما الحب يأتي في اللحظة التي لا ننتظرها،
لينفتح داخلك على خارجك، فإن الثورة تبدأ حين يقول
الوعي ما كان يهجس به اللاوعي سراً و خوفاً».

قد يكون من سخريات القدر أن تكون أول مرة أتلفظ بها بعبارة «الشعب يريد إسقاط النظام» في الزنزانة رقم 6 في معتقل تحقيق المخابرات الجوية!

كان يوم الجمعة يوماً مميزاً ومرعباً: هدوء مطلق، عدد السجّانين أقل من المعتاد بكثير، مما يسبب تأخراً في مواعيد الطعام ومواعيد الخروج إلى الحمّام، فينعكس الأمر توتراً وخوفاً في عيون السجّان الذي يتحاشى النظر إليك، كأن عينه مكسورة!

إذّاك كنا ندرك أن الأمور خارجاً ليست على ما يرام، خاصة أن كل يوم كان يأتي وافد جديد للزنزانة الصغيرة (تتسع بالحد الأعلى لسبعة أشخاص مسايفة) التي كنا فيها أربعة أشخاص، ووصل عددنا إلى أحد عشر معتقلاً، يتناقص ويتزايد بمعدل واحد أو اثنين، مع زيادة واضحة (خاصة في أيام الجمع) في أعداد المعتقلين المرميين في الممر، والذين كنا نراهم أثناء خروجنا إلى الحمّام.

وهنا كنا ننتظر بفارغ الصبر انتهاء التحقيق مع أحدهم وإدخاله إلى الزنزانة، لندرك ماذا يجري في الخارج. كنا نعيش حمّى الانتظار

والشوق لتسقّط هذه الأخبار، إلى درجة أننا أحياناً كنا نطرح الأسئلة (بعد تنبيهه عن المخبر طبعاً) وننسى أن المعتقل خارج للتو من تحت البطانية والتحقيق!

كان يوم الجمعة الأعظم كما أسميه، حين أُخبرنا أن بثينة شعبان وعدت في مؤتمر إعلامي بإلغاء قانون الطوارئ وإخراج المعتقلين السياسيين وإطلاق حرية الأحزاب، وأن الشعب خرج مطالباً بالمزيد، وبسرعة تطبيق ما وعدت به، وليس أن تقول سنعمل كذا وكذا! في تسويف خبره الشعب السوري ولم يعد يصدّقه.

لم نعر المخبر أدنى انتباه، وأسقطنا حذرنا في التعامل، وبدأنا نسأل عن أدق التفاصيل عما يحصل في الخارج، مع مراعاة أن لا يتحدث المعتقل الجديد عن أي شيء يخصه، وإذا انزلق بالحديث كنا ننبهه بأعيننا، ليأخذ هو الدور فيما بعد وينبّه القادم الجديد.

تلك الليلة، كانت الفرحة تغمر وجوهنا بشكل واضح. بل قل كنا نشع فرحاً، أمسكت يد محمد علوش من تحت البطانية وشددت عليها بقوة، فشدّ هو الآخر ورفعنا البطانية أمام أوجهنا كي لا يرانا المخبر الذي كان يراقبنا شخصياً بشكل واضح، إلى درجة أنه كان يحاول أن لا يكون واحدنا بجانب الآخر، محاولاً دائماً التوسط بيننا ليسمع كل ما نقوله.

بدأنا الحديث ونحن نرفع البطانية في رسالة متقصدة له بأنّا نعرف أنك تراقبنا، وأننا نتحدث ما لا نود أن تعرفه. قال لي علوش موشوشاً: «ولك إنتا مع إسقاط النظام كمان؟!».

بفرح غامر وقلب مجنون يرفضه العقل قلت له: «نعم».

وغرقت تحت البطانية، وأنا أشعر أن جسدي يتراقص، وصرخت بصوت باطني: «الشعب يريد إسقاط النظام! الشعب يريد إسقاط النظام!».

لكن رغم ذلك، فإن عقلي كان شكاكاً، فقلبي ومشاعري مع إسقاط النظام، خاصة بعد أن رأيت مستوى العنف والفجور هنا، وإدراكي بالتجربة

العملية صعوبة إصلاح سلطات كهذه، فإن عقلي يدرك جيداً أن النظام لا يسقط لمجرد الرغبة بإسقاطه، فالثورة في نهاية المطاف علم وتخطيط وموازين قوى وأوراق قوة، وليست رغبة وحلماً، رغم أن الحلم شرط ضروري وممر إجباري للتغيير، إلا أنه غير كافٍ وحده.

بين ما يسمح به الواقع والرغبة بإسقاط النظام، كنت أتمزق، وسأبقى أتمزق طيلة شهور الثورة وبعد الخروج من المعتقل، ولا أزال، خاصة أن فاتورة الدم السوري أصبحت عالية جداً، وأكبر من قدرة الثورة التي امتزجت بالحرب الأهلية والصراع الدولي، على الاحتمال، نتيجة الاستراتيجيات الخاطئة للمعارضة التي جيّرت ثورتها لصالح دول خارجية عاثت فساداً وإيغالاً بالدم السوري، كما النظام الذي يبقى دوماً المسؤول الأول.

المرة الثانية التي سأصرخ فيها «الشعب يريد إسقاط النظام» ستكون في مظاهرة القيمرية (2011)، إذ رغم أن الاتفاق كان على أن تخلو التظاهرة من هذا الشعار لصالح شعارات الحرية، لأنها في منطقة حساسة وقريبة من الأفرع الأمنية، إلا أن الهتّيف لم يتمالك نفسه، وصرخ عند وصولنا في آخر شارع القيمرية: الشعب يريد إسقاط النظام!

بلعت ريقي الذي شعرته ناشفاً وخفت كثيراً، وحاولت الرد فلم أستطع، بينما صوت المتظاهرين حولي يلعلع.

الشعب يريد إسقاط النظام! (صرخ الهتّيف مرة أخرى).

تشجعت بأصوات زملائي ورددت خلفه بصوت خافت/ هامس أكاد لا أسمعه، وكأن نفسي تخاف من نفسي، كأن ثورة في داخلي تحدث، صراع بين اللاوعي المندفع وبين الوعي الحذر والرافض.

الشعب يريد إسقاط النظام! (صرخ الهتّيف مرة ثالثة).

صرخت بأعلى صوتي: «الشعب يريد إسقاط النظام!»، لأنتصر على خوفي وترددي، وكأن أحداً غيري يقول هذا الكلام.

لم يكن صوتي!

بل كان صوتي الذي نسيته، صوتي الذي غمرته سنوات الاستبداد، فكل صوت قلته قبلاً لم يكن لي، بل كان صوتهم. ما علّموني إياه ودجّنوني عليه. اليوم تعرفت على صوتي، أناي، صوت حريتي، ها أنذا الآن حرٌّ وحرٌّ وحرٌّ.

«الشعب يريد إسقاط النظام!» صرخنا للمرة الأخيرة، وبدأنا نهرب في الحارات بعد هجوم «الشبّيحة» علينا بالعصي، لنختبئ على عتبة باب دمشقي يكاد لا يتسع لشخصين، أنا وعمر سليمان وباسليوس زينو والشاعران وائل سعد الدين وفادي جومر وصبيتان، وكان لهاث فادي ووائل اللذين يشربان الخمر كالماء، يملأ المكان، فكنا نطلب منهما تخفيفه كي لا يسمعنا أهل البيت أو «الشبّيحة» الذين كنا نراهم يروحون ويجيئون في الشارع، لنبدأ بعد قليل عملية الخروج اثنين اثنين دون أن يشك أحد.

سجّان أم ضحية!

«أن تفقد إنسانيتك: هذا هو المعتقل الأكبر،
سواء كنت سجّاناً أم معتقلاً أم طليقاً».

صديقتي (خ. م) التي خرجت من المعتقل، حدّثتني كثيراً عن الإنسانية الكامنة في دواخل السجّانين والعناصر، إذ قضت يوم اعتقالها الأول في غرفة العناصر، قبل أن يتقرر إنزالها إلى المعتقل، مستغربة كيف يصعد كل هذا الحقد منهم أيضاً!

في ذلك اليوم تمكّنتُ من رصد والتقاط مكامن الإنسانية الضائعة فيهم والتي يضطرون لإخفائها، كي لا يُتّهموا بالتساهل والتعاون مع المعتقلين، فبعد لحظات الصراخ والشتم الأولى التي بدأت بعد أن اكتشفوا على موبايلها طفلاً يغني «يلعن روحك يا حافظ»، وثمة صوت/ صوتها يلقّنه الأغنية، بدأ هؤلاء العناصر بالعودة إلى طبيعتهم، المؤمنة بما يفعلون عن دراية، إذ حدّثها أحدهم بثقة وهدوء: «بتعرفي حسام؟ فيكي تلعني حسام يلي هوّي أبي، بس ما فيكي تلعني حافظ قدّامي!».

في الحقيقة هذا نوع من وعي مكوّن من قبل السلطة، عملت عليه، على مدى عقود، وهو يحتاج إلى عقود من العمل السلمي الدؤوب لتفكيكه، بنسف الوعي القائم وتفكيك منظوماته لصالح وعي جديد، ولا يفكَّك بالسلاح الذي يزيده تجذراً. والطريق الذي سلكه القسم الأكبر من المعارضة لم يفعل، للأسف، إلا تعزيز هذا الوعي المكوَّن.

العنصر نفسه هو من سيجلب الطعام لصديقتي ويصرّ على أن تأكل، وهو من سيسخن لها الخبز على السخانة، وهو نفسه من سيبدأ معها حديث أصدقاء وصل إلى حد أن تقول له، وهي في يوم اعتقالها الأول: «طيّب، خفّفوا هالفروع، يعني ليش في ميت ألف فرع بالبلد؟!»، ظانّة أنه يمكنه ذلك وهو السجين (مثلها) الذي يشتهي «طبخة» زوجته أو أمه التي لم يرها منذ شهور أيضاً.

وخرجت صديقتي متعاطفة معهم!

نعم، تعاطفت معهم، وهي الخارجة باتجاه التحقيق لتدخل إلى قبر الزنازين. وقالت لي بعد خروجها: «كم أتمنى لو ألتقي به!» (وهي تقصد هذا العنصر الذي تحدّث معها قبل أن تغيب في لجّة المعتقل).

يومذاك كفرت بالاستبداد والله وكل شيء، دون أن تعرف صديقتي، ولسان حالي يقول: يا الله، من يعتقل أنثى تريد مقابلة سجّانها فقط لأنه منحها لحظة حنان؟ وفي الوقت نفسه من هو المجرم الذي يقتل الإنسانية في هذا السجّان ويجعل منه وحشاً وإنساناً في اللحظة ذاتها؟

إنه عالم السجن!

شعور هذا السجّان بأنه مسجون هو ما يدفعه لذلك، وهذا ما لمسته في فرع التحقيق، إذ كان ثمّة سجان لئيم جداً جداً، فهو الوحيد الذي يضرب المعتقلين بالخيزرانة لحظة خروجهم من الزنزانة إلى التواليت، وقد كان الخروج بمعدل ثلاث مرات يومياً، تترافق مع خلع الثياب والخروج بالكيلوت فقط، مما يجعل وقع الخيزرانة مؤلماً، بحيث يبقى أثرها على الجسم أياماً، لأنه (ابن الحرام، كما كنت أسمّيه في سرّي) يضرب بكامل حقده، مما كان يحوّل وقت مناوبته إلى جحيم يجعلنا نفضّل لو كان بإمكاننا عدم الخروج إلى التواليت، لتفادي ضرباته ونوبات جنونه، التي كانت توصله أحياناً إلى حدّ الدخول إلى الزنزانة وضرب المعتقلين فيها، كما حصل مرّة حين كان معنا أحد أبناء درعا الذي جاءنا شبه مجنون، دون أن ندرك ما إن كان

هو هكذا أساساً أم حصل له هذا بفعل الضرب الذي دفع السجّان (ابن الحرام) لضربه.

المربك في الأمر أن العنصر جميل جداً جداً، إلى درجة أنه من الممكن لأختك أو بنت أختك أن تعشقه.

لا أدري لِمَ، كلما تذكرته، أتأمل المشهد التالي: إنه قادم لخطبة ابنة أختي، وأنها ستكون فرحة به، وأُصاب أنا بصدمة ما ستربك الجميع. وكلما عدت لتأمل المشهد تتغيّر نهايته حسب حالتي النفسية، فمرة أطرده من المنزل، ثم أشرح لابنة أختي أنه قاتل وسجّان. ومرة أتمالك أعصابي وأنتظر خروجه، لأنفرد بأختي وأدعها تشرح الأمر لابنتها، لتطرده من حياتها على طريقتها. ولكن، ثمة احتمال لم أجرؤ على التفكير به: ماذا لو كانت هي تحبه وألحّت عليه؟ وما الذي يضمن لي أساساً أن العديد ممن أعرفهم من أقاربي وأبناء قريتي، وهم يخدمون في تلك الفروع، لا يقومون بهذه الممارسات القذرة! فهل يعني هذا منع التزاوج معهم؟ أليس في هذا عنصرية؟!

«أوووه، الأفضل عدم التفكير، أسئلتك مجنونة يا ديبو!». هذا ما تقوله نفسي لنفسي.

الصحيح أننا في بلد أنهكه الاستبداد، بمؤيديه ومعارضيه، نسكن عصفورية واحدة. نعم، بلد حوّلها الدكتاتور إلى عصفورية كبرى، تحتل فيها السلطة موقع الطبيب السادي. وكلنا نحتاج إلى رحيل الدكتاتورية، وإلى علاج طويل طويل، لنعود كما كنّا: بشراً عاديين، إيديولوجيتهم الوحيدة: الحياة بكامل تفاصيلها التافهة، فلا شيء يقتل الحياة مثل القضايا الكبرى.

السجّان (ابن الحرام)، الذي كان يبدو أمامنا بكامل جبروته وقوته وصلفه، هو في نهاية المطاف مجرد «عنصر» يؤدي خدمته الإلزامية، ويبحث عن مجرد إجازة، فحين كان يجري الإعداد لعملية إطلاق سراحنا،

بعد توقيع تعهّد بعدم التظاهر بعد اليوم (وهو التعهد الذي لن ألتزم به طبعاً، إذ شاركت بعد خروجي في مظاهرة القيمرية ومظاهرة المثقفين في دمشق وغيرها)، وأثناء «المحاضرة» المعتادة التي يلقيها أحد المساعدين للمعتقلين، حول خروجهم عن حكمة القائد التي لا تضاهى، وحنانه العابر للحدود لمنْحِنا عفواً! كان (ابن الحرام) متململاً، ويقول بين الفينة والأخرى للمحقق: «سيدي، بدي إجازة!»، فيعبس المحقق في وجهه، طالباً منه الانتظار ريثما ينتهي منا، فيعود (ابن الحرام) مرة أخرى ويطلب الإجازة، الأمر الذي دفع المحقق للقول: «ولك شايفين؟ واللّه العناصر معتقلين أكتر منكن، هَيّ إنتو رح تطلعوا وهنّي ما فيهن يروحوا!».

عندئذ فكّرت: هل كان قيام (ابن الحرام) بضربنا طيلة هذه الأيام، لأنه يريد إجازة؟! هل عبوديته لمن هو أكبر منه كانت تتحول استئساداً علينا، في لعبة الضحية التي تتحوّل إلى جلاد؟ يُحرم من الإجازة فيضربنا، لأننا، برأيه، نحن السبب!

في تلك اللحظة رأيته إنساناً ذليلاً، مجرداً من بطش «خيزرانته»، مجرد «عنصر» يريد إجازة، ليرى حبيبته (هل ثمة أنثى يمكن أن تحب كائنا كهذا؟!)، أو أمه، أو ليشرب المتّة مع أصدقائه، أو ليتمشى في شارع الحمراء وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما اشتهاءً للنساء.

نعم، إنه ضحية وجلاد، وسجّان ومسجون في الوقت ذاته، وهو أمر ينطبق على الكثيرين الذين رأيتهم، فالعنصر الذي استقبلني لأول مرة في فرع طرطوس، بمجرد وصولي إلى الغرفة التي كان يجلس فيها، صرخ بي قائلاً: «وجهك بالأرض يا حيوان!»، وضعت وجهي بالأرض، فنهض وقام بتقييد يديّ إلى الخلف وتعصيب عيني، وبدأ الضغط والتهديد بعد بدء التحقيق لأعترف! ثم هو نفسه من سيقول لي أثناء جلبي من الزنزانة إلى التحقيق، برقّة يبدو من لهجتها أن ثمة أسى علي: «ولك يا حمار، اعترف، واللّه بتموت هون تحت التعذيب وما حدا بيعرف فيك!».

وعاد يقول مرة أخرى، بلؤم: «والله الجيل الجاي، رح تقلب جقل بوادي ضيعتكن! بعدها بحياتك ما عاد تاكل بالمعلقة!».

ولكن هو نفسه من قال لي: «لا تخاف!»، حين أخرجني مرة من الزنزانة وكنت أرتجف من الخوف، فقال لي: «ما بك هل أنت بردان؟»، وحين أجبت بالنفي مسّد بيديه على رأسي: «لا تخف!»، وهو نفسه، حين دخلت السيارة إلى دمشق، من سألني عما إن كان القيد قاسياً على يدي! فقلت له: «نعم»، وحين همّ بتوسيعه، نهره السائق قائلاً: «شو بدك تعملّوا متل ما بدو؟»، ومع ذلك وسّع القيد، ووضع الجاكيت على وجهي كي لا أرى الطريق نحو الفرع، و بدأ بعد ذلك يعاملني بخشونة، بدا واضحاً أنها مفتعلة خوفاً من زميله.

هذا الخوف من الزميل ومن الآخر، هو ما سأرصده في عيون هؤلاء الخائفة من أن يشي بهم زملاؤهم، إن ضُبطوا بتهمة «الإنسانية» والتساهل مع المعتقل، فللمؤسسة الأمنية روح تطبع بها كل من يدخلها، سواء كان سجّاناً أم سجيناً أم مراجعاً، إنها روح الخوف التي تقوم هذه المؤسسات عليها: السجين يخاف من السجّان، والسجّان يخاف من زميله وآمره، وهو يريد إخافة السجين لكي لا يخاف هو، وعدم خوفه المفتعل هذا هو إشهار واضح للخوف، في مؤسسة تقتل ريح الإنسانية في دواخله هو وزملاؤه، فهم أيضاً يخافون من العقاب ويتحاشونه، بل هم أكثر خوفاً وبؤساً منا وإن كانوا طلقاء. هذا ما تعكسه أرواحهم الهائمة وثيابهم الرثة ووجوههم وأشكالهم الضعيفة التي تشي بأن رواتبهم تكاد لا تكفيهم ثمن الطعام! إضافة إلى تحولات وجوههم وتصرفاتهم، واختلاف الكلام ولهجته حين ينفردون بك، وحين يكلموك بحضور زملائهم.

في الأولى يكلمونك بضميرهم الحيّ الذي لم يمت، والذي يقاوم (كما تقاوم أنت) عفن المؤسسة القاتلة للضمير، وفي الثانية رضوخ للمؤسسة الصانعة للخوف، لكي يبعد «وجع الرأس» عنه، وهو ما رأيته متجسداً في المساعد أول الذي جلس بجانب السائق، في السيارة التي أقلتني من

طرطوس إلى دمشق. فطيلة الرحلة لم ينبس بأي حرف، بل كان وجهه متعاطفاً، إذ كنت ألمحه بين الفينة والأخرى ينظر إليّ من مرآة السيارة ويتأملني بأسى، وحين ينتبه أنني انتبهت لنظراته أيضاً، يهرب من وجهي بخجل.

حين دقّقت بملامحه رأيت فيه إنساناً طيباً، متعاطفاً، إنه أحد أبناء تلك القرى الجبلية التي لم يُترك لها إلا الجيش والأمن وسيلة للعيش، فيذهب في الصباح إلى الفرع، كأيّ موظف حكومي، ويعود في الظهيرة ليعانق أولاده متهرّباً من طلباتهم، لأن راتبه لا يكفي لتلبية حاجاتهم الأساسية.

طيلة الرحلة لم ينبس بحرف واحد، رغم أنه المسؤول الأول عنها، لأنه الرتبة الأعلى بين من نقلوني بالسيارة، كما يبدو من عمره، بل إنه لم يقل شيئاً حين سألني العنصر عما إن كان القيد قاسياً على يدي، وتجاهل كلام السائق الأرعن، لنكون أمام سائق أقل رتبة يريد أن يبدو أمام قائده ملتزماً بالتعليمات، في علاقة مربكة بين السيد والعبد، والجلاد والضحية، والرئيس والمرؤوس، وهو ما يعكسه بوضوح ما قاله المساعد أول (وكانت هي المرة الأولى التي أسمع بها صوته) أثناء عملية تسليمي لفرع دمشق، حين قال لي مستلم الأمانات، بعد أن ضبطني أنظر إلى التلفاز في زاوية الغرفة محاولاً قراءة الشريط الإخباري: «لا تفكّر هاد هون! هاد بليبيا، بدك يصير فينا هيك ويجي الناتو لهون؟ شو عامل حتى جايبينك لهون؟».

«لا شيء».

«إي كلكن بتقولوا هيك، نحنا ظالمينك، بعرف، واللّه حقكن علينا، مو هيك؟ ولك ليش ظالمينو وجايبينو من طرطوس لهون؟».

قال موجهاً كلامه إلى المساعد الذي قال له:

«يلي بيترازل هيك بيصير فيه!».

صدمتني عبارة المساعد، لأني لم أكن أتوقعها منه، ولكن حين دققت

في ملامحه، بدا لي كمن قالها وهو مجبر، إلى درجة أنه لم يضع عينيه في عيني، و كأن تعليمات المؤسسة حلّت في روحه، بمجرد دخول السيارة فرع تحقيق المخابرات الجوية في المزة، فهو قالها كي لا يبدو أقل ولاءً من زميله، ولأن الموقف يتطلب ذلك.

لم يكن جميع السجّانين/ العناصر هكذا، ضائعين بين إنسانيتهم وروح المؤسسة القاتلة لضمائرهم، فهناك من وضع ضميره طائعاً وبكامل إرادته في ثلاجة الموت، وأطلق العنان لقذارة الشيطان الكامنة فيه، طارداً الإنساني إلى غير رجعة. وهناك من حافظ على إنسانيته كاملة حتى في تلك الأماكن القذرة، إذ لا يمكن أن أنسى أبداً، ذلك العنصر/ النبيل/ الإنسان الذي استقبلني داخل معتقل فرع التحقيق في دمشق، إلى درجة أنني أتمنى لو ألتقيه ذات يوم، كما تشتهي صديقتي أن تلتقي سجّانها الذي تحدثت عنه سابقاً.

بعد دخولي إلى عالم الموت هذا، كان هذا السجّان هو أول من تلقّفني، ليقوم بتفتيشي بخلع كل ثيابي ولبسها من جديد، ثم سألني عما أعمل، وإذ قلت له: كاتب وصحافي، عبّر بوجهه كمن يتأسف ويتعاطف لوجودي هنا. ثم أعطاني استمارة لملئها بالمعلومات، وهو يقول لي: «ما بعرف إنتو المثقفين شو بيجيبكن لهون؟!»، دون أن أفهم إن كان سؤاله إدانة لي لما فعلته، وكان سبباً في مجيئي إلى هنا، أم أنه إدانة للمؤسسة التي جاءت بي إلى هنا! ليتبع كلامه بالقول: «بدي احترمك لأنك مثقف!».

وفعلاً تعامل معي بودّ مطلق إلى حين انتهائي من تعبئة الاستمارة، وسمح لي بشرب الماء، ثم أخذني بعدئذ وقيّد يدي ووضع العصابة على عينيّ، وهو يقول لي: «آسف ما عاد فيّ أعملك أكتر من هيك»، شعرت بدفء قلبه وكأنه حزين لمآلي، وأخذني بعد ذلك وأجلسني على الأرض، في الممر الفاصل بين الزنازين ووضع البطانية فوقي، كي لا أرى شيئاً مما يحصل حولي، إن تمكّنت من إزالة العصابة عن عيني، وهو الأمر الذي جاء برداً

وسلاماً عليّ، لأني كنت أشعر ببرد عميق الغور يحفر كسكين في الروح والجسد.

بعد انتهاء التحقيق ودخولي الزنزانة، صرت أراه كل يومين أثناء إخراجنا إلى التواليت، وسيبقى كما عرفته: لم يصرخ بوجه أحد، ولم يُهن أحداً، ولم يضرب أحداً طيلة وجودي. كان يؤدي ما هو مطلوب منه بصمت، وكأنه يخجل مما يفعله.

مرة صادفته في الشارع، أشاح بوجهه بعيداً عني، الأمر الذي دفعني للتفكير والتساؤل: لِمَ فعل ذلك؟ استحوذ الموضوع على تفكيري يومين متتاليين، إذ لم أجد مبرراً لما فعل، خاصة أنني فعلاً كنت أتمنى لو أجالسه وندخن النرجيلة معاً كأي صديقين أو شخصين عابرين يلتقيان لمرة واحدة مصادفة.

تفكيري في الأمر قادني إلى أنه ربما خاف مني لأنني معارض، بعد أن جنحت المعارضة إلى السلاح، الأمر الذي دفعني للتساؤل: هل هو ينظر إلي الآن كمشروع قاتل، كما كنت أنظر إلى كل عنصر كسجّان لئيم، وفق صورة نمطية مزروعة في أذهاننا؟!

إن كان الأمر كذلك، فستكون سورية قد خسرت إنساناً نحن بحاجة إليه، في زمن انحدار الأخلاق الذي نعيشه.

مقابل هذا العنصر الذي يناضل لعدم الاندماج بروح المؤسسة القاتلة تلك، كان ثمة من يتماهى ويتوحّد بها، بحيث يصبح التعبير الأمثل عن روح المؤسسة بكامل رعبها ونتانتها وسعيها لزرع الخوف في قلب كل من يدخلها.

هذا ما كان عليه حال العنصر الذي استقبلني برفقة زملائه على بوابة فرع التحقيق، قبل تسليم الأمانات ودخول المعتقل، ضمن ما يعرف بـ «حفلة الاستقبال».

«شو تهمتو؟ شو تهمتو؟ فيسبوك؟».

«...».

«من وين يا حيوان؟».

«من طرطوس، من بانياس».

«من وين يا خاين؟!» (قالها كمن فوجئ بأن يكون ثمة متظاهر ضد النظام من طرطوس/ بانياس!).

بمجرد معرفته أنني من طرطوس، ارتفعت حاسة الأذى لديه، وبدا لي أنه يشعر باستفزاز مضاعف تجاهي، فبدأ يضربني على رأسي، وهو يحاول شدّ شعري الذي كان بطول 2 سم فقط، وإطفاء السيجارة في يدي، ثم أخرجني إلى خارج الغرفة وطلب مني الركوع على الأرض ورفع يديّ للأعلى ووجهي للحائط، ليعود كل فترة ويُسمعني كلاماً مهيناً، إلى أن تعبت يداي وركبتاي ولم أعد قادراً على الوقوف بالوضعية نفسها، فجلست على الأرض، فعاد ليطلب مني بلؤم فاجر النهوض، دون أن أتمكن، وأتى عنصر آخر، يبدو أنه يعرفني، فتفاصيل وجهه قريبة من معالم أهل قريتي، دون أن أعرف إن كان من قريتي أم لا، نزع العصابة عن عيني وقال لي: «خلص اقعد، منشان تعرف إنو نحنا عنا رحمة!».

العنصر الأول الذي أهانني كان تجسيداً خالصاً لروح المؤسسة الأمنية بكلاحتها، وهو ما سأتأكد منه يوم خروجنا من المعتقل حين اجتمع بنا العميد ليلقي علينا «محاضرة» وهي غير المحاضرة الأولى أثناء خروجنا من بوابة المعتقل (المعتقل مجرد مبنى في الفرع)، إذ كان هذا العنصر بجانبه، ويبدو أنه تذكّرني. وحين كان العميد يلقي محاضرته كنت أطرق بوجهي إلى الأرض متململاً، الأمر الذي دفعه للمجيء إلى جانبي والقول لي وهو يهز رأسه بلؤم: «شو مو عاجبك هالحكي شكلو؟».

وبعد أن انتهى العميد من كلامه، حاول تأليب العميد علي، بالقول:

«شكلو سيدي هاد مو عاجبو حكيك!»، الأمر الذي كان سيدفعني لأقول للعميد، حين سألنا إن كان أحدنا بحاجة إلى شيء: «لماذا تعاملوننا هكذا؟ ولِمَ هذا العنصر يقول لي خائن! أنا لست خائناً، بل مواطن. لو كنا في دولة لكان بإمكاني أن أرفع دعوى على هذا العنصر الذي هو بجانبك لأنه يصفني بالخيانة!».

إلا أنني بلعت لساني حين انتبهت أن العميد لم يعر كلام العنصر أدنى اهتمام. هذه حالة عنصر يسعى سعياً للتماهي في روح المؤسسة والانخراط في خدمتها.

بعد خروجي من المعتقل، كانت صديقتي تكلمني دوماً عن ابن قريبها الذي يخدم في أحد الفروع الأمنية، وعن كيفية تشبيحه، الأمر الذي جعلني أربط بين الرجلين على أنهما واحد، إذ لا أعرف ما الذي دفعني لتخيُّل أن قريبها هو هذا العنصر نفسه. ربما كلامها ووصفها لتصرفاته ووفائه في خدمة المؤسسة والدفاع عن النظام حتى الموت.

بعد تعرّض قريبها لمحاولة اغتيال أدت إلى بتر ساقه، ازداد يقيني أنه هو، لا أعرف لماذا! ربما لأنني أؤمن بفكرة العدالة الإنسانية، وهي غير العدالة الإلهية. وهي فكرة ترسخت لدي من قراءة ملفات الطغاة والجلادين في العالم، فحين أرى النهاية التي آل إليها القذافي وأبناؤه وصدام وأبناؤه وغيرهم، أشعر أن ثمة عدالة خاصة لا علاقة لله بها تلاحق البشر.

الغريب أنني لم أكن متعاطفاً مع قريب صديقتي حين كانت تحدّثني عن تفاصيله، بعد أن أصبحت تزوره في المشفى، رغم أن ثمة تفاصيل يتوقف عندها: عدم تأقلمه بسهولة مع بتر ساقه وهو الشاب الجميل، المرأة الأنيقة التي تزوره هي وبناتها الجميلات جداً جداً في المشفى، لأنها تزوده بالمعلومات عن الجميع مقابل حمايتها! مما يعطي المرء صورة عن كيفية عمل هذه الأجهزة الأخطبوطية، قيامُ الأمن بجلب المعتقلين لضربهم في باحة المشفى، لإشعار أهالي المصابين من الأمن والجيش بالانتقام!

عدم تعاطفي معه، أزعجني ودفعني للبحث عن ذاتي ومساءلتها عما إن كان هذا انتقاماً وشماتة! لأني حريص على أن لا أسمح لنفسي بأن تشمت بأحد حتى لو كان الطاغية ذاته، فكيف بعنصر يستحق الشفقة؟ ومع ذلك لم أتمكن من التعاطف معه حتى اللحظة. ربما لأننا حين نتعاطف مع الآخر فنحن نتعاطف مع الإنساني فيه، وحين يموت هذا الإنساني كاملاً، يغدو «شيئاً» لا إنساناً. وهذا ينطبق على أولئك الذين توحّدوا مع روح المؤسسة وتماهوا معها، فأصبحوا مثالها القائم على التضاد مع الحياة.

ولكن رغم قتامة تلك الأقبية والزنازين، فإن وجود أولئك الذين لم تقدر تلك المؤسسة على قتل الإنساني فيهم، كان دليل انتصار للحياة والحرية، ودليل مقاومة المرء لكل ما يهين إنسانيته، فهم يقاومون موت إنسانيتهم، سواء عرفوا ذلك أم لا، ينتفضون بتلك المشاهد والتصرفات الإنسانية الصغيرة على قتل الإنسان فيهم، عدا عما تفعله تلك المواقف الصغيرة بنا، فشخصياً كانت تهزني تلك المواقف التي كانت تفاجئنا أحياناً، فمرة جلبوا لنا طعام العشاء وكان عبارة عن بطاطا مسلوقة فقط، لأن العشاء عادة يكون شوربة وبطاطا وأحياناً بندورة، وحين بدأنا الأكل أحسسنا بجفاف اللقمات وأننا نأكل بصعوبة بالغة، فاقترح أحدهم أن نطلب ملحاً، وفعلاً تجرأ أحدهم وطلب من السجّان الذي ردّ بطريقة فظة: «إي اقعد كول كول هلأ!»، الأمر الذي جعلنا نتابع الطعام مفترضين فشل المحاولة، لكننا فوجئنا بعد دقائق بأنه يمد يديه ليعطينا الملح وسط ذهول أصاب الجميع!

لا أزال حتى اللحظة أشعر بنشوة الإنساني المشترك بيني وبينهم، إذ أشعر أن ثمة خيطاً يربطنا معاً، معتقلين وسجّانين، ينبغي البحث عنه جيداً للقبض عليه وتوجيهه ضد الطغاة الكبار، وهذا ما لم تحسنه المعارضة التي تحوّلت إلى مجرد ظل آخر للسلطة خلال صراعها مع النظام، خاصة إذا وسعنا الدائرة، لقراءة الأمر ضمن إطار المعارضة وأنصار النظام

الذين لم تعرف المعارضة كيف تفكك خوفهم من رحيل الدكتاتورية باتجاه بديل وطني لجميع السوريين.

وكالة أنباء الله

«مئذنة الجامع: إحدى أدوات السيطرة الإعلامية لله، لتدجين البشر.

إعلام السلطة (أيّة سلطة) يستمد روحه من إعلام اللّه، فيتكاتف الديني والسلطوي في صناعة عقولنا سعياً للهيمنة والاستئثار، إذ يستند الثاني إلى «قداسة» الأول، فيلغي السؤال، فالاحتجاج.

حين يتمرد «إعلام اللّه» على «إعلام السلطة» فإنه يكون لصالح مستبد آخر، وليس لصالح العقل الحر. العلاقة بين الدكتاتور واللّه أزلية خالدة، وليست دنيوية عارضة.

إصلاح إعلام اللّه ممر إجباري لإصلاح إعلام السلطة، لنزع المقدس من يد اللّه والدكتاتور في آن!».

حين سكنت في منزلي قبل عامين، كانت أذني تلقائياً ترصد أي صوت (غير الأذان) يخرج من الجامع المجاور لمنزلي، لأن خروج الصوت يعني أن ثمة حدثاً ما يستدعي نقله للعامة، فقد يكون الخبر: وفاة رجل، أو طفل ضائع، أو هوية ضائعة، أو ما شابه من تفاصيل الحياة الطبيعية الهامة حيناً، والتافهة في أكثر الأحايين.

بعد جنوح الانتفاضة نحو التسلح، بدأ الجامع يذيع يومياً أخبار الموت

القادم من الجبهات، فكنت أقيس حدة المعارك التي نسمع أصواتها على الطريق المؤدي إلى مطار دمشق الدولي، تبعاً لعدد «الشهداء» الذين يزفهم الخطيب من مئذنة الله.

وبما أنني أرفض اقتناء تلفزيون، منذ قرأت حواراً لسعد الله ونوس يتحدث فيه عن مساوئ التلفزيون، بقدرته على صناعة عقل المرء ضمن سعي الإعلام الدائم لصناعة رأي عام يتوافق مع ميول مموّلي كل تلفزيون، وهو ما سمّاه نعوم تشومسكي «صناعة القبول»، فاعتبرت الجامع تلفزيوني الخاص، أو وكالة الأنباء التي أستمد منها الأخبار بعد الإنترنت، فأسميته: وكالة أنباء الله.

بعد تكاثف الموت، قرر عقلي الباطن عدم الانتباه لما يقدّمه الله عبر وكالته، فلم أعد أجري باتجاه النافذة أو أصيخ السمع فور سماعي الصوت. وقد استمر الأمر طيلة شهور الانتفاضة التي تحولت إلى ثورة، فحرب مسدودة الأفق، إلى أن وجدت نفسي يوماً أجري باتجاه النافذة لسماع ما تقوله الوكالة، تاركاً طاولة الكتابة التي نادراً ما يُنهضني عنها شيء!

كان الخبر يتعلق بطفل ضائع في الشارع، مما دفعني للتفكير بسبب نهوضي المفاجئ هذا، خاصة أنني لم أنهض بمثل هذا الشكل منذ سنتين تقريباً، رغم أن الله لم يتوقف عن بث أنبائه يومياً!

لم أتمكن من العثور على إجابة إلا حين جاء النبأ الثاني بعد ساعتين، وكان يتعلق باستشهاد أحدهم، بسبب قذائف الهاون التي سقطت اليوم على المدينة، إذ انتبهت أنني لم أنهض ولم أذهب باتجاه النافذة هذه المرة!

يا الله كم مفجع حجم ما وصلنا إليه، حين تعوّدنا على كل ما يحصل في حياتنا من موت ومهانات، كما يقول الشاعر الراحل ممدوح عدوان في روايته «أعدائي»!

اكتشفت أنه خلال عامين أصبح عقلي الباطن وأذني مدربين على إيقاع

كلمات خبر الموت الذي تبثه الوكالة، بحيث بتّ أعرف فحواه دون أن أسمعه من إيقاع الكلمات، فأهمله وأتابع عملي دون أن أعيره أي انتباه، لأنه أصبح خبراً يومياً عادياً لن يوقظني منه إلا تغيّر إيقاع الصوت على خبر آخر، لأكتشف حجم «ما مات من إنسانيتنا حين تعوّدنا على كل ما يحصل حولنا».

اتصال على طبيعة الاستبداد والفلسفة!

«كيفك؟».

«هلا!».

«بدك تروح تعزّي؟».

«ليش مين مات؟».

«أبوه لرفيقنا أحمد!».

«وين استشهد؟ وكيف؟» قلت بلهفة خوف.

أجاب صديقي ببرود، مهدّئاً من قلقي: «ولك لاء مات بشكل طبيعي بالمشفى!».

****

هل دخلنا في زمن الاستثناء/ اللاطبيعي؟

في الحرب: يصبح الطبيعي لا طبيعياً، فالموت يصبح رفيقاً والحياة استثناء.

ولكن أي استثناء جديد دخلنا؟ إذا كانت حياتنا كلها في ظل الاستبداد استثناء؟ هل نحن في مرحلة استثناء الاستثناء وفق نظرية الجدل؟ أم نحن في درجة متطورة من الاستثناء؟

ما قيمة هذه الأسئلة؟ ولِمَ أتفلسف الآن؟ هل هذا وقت الفلسفة؟

مهلاً..

ألا تولد الفلسفة من خضم الأسئلة الكبرى والجروح الكبرى والحروب الكبرى؟

سأكون راضياً عن الثمن الذي تدفعه سورية اليوم، إن أعطتنا هذه الحرب فيلسوفاً واحداً لم تنجبه ثقافتنا منذ قرون!

أزمتنا تكمن في غياب الفيلسوف الذي يلوي عنق التاريخ، ويتقدّم فاتحاً أفقاً جديداً!

الأنثى: هذا الاعتقال/ الهلاك اللذيذ!

«الأنثى هلاك دائم، سواء كانت أمّاً أم حبيبة.

الأم تأسرنا بحبها اللامحدود، فنبقى بملء إرادتنا في سجنها أبداً، غير مدركين، حجم ما ندفعه من حريتنا مقابل هذا الحب الذي نرتضي أسره بأيدينا.

الحبيبة: سجن مهلك، فرحه نهر وحزنه محيط.

المعتقل الأول أصيل والثاني دخيل».

امرأتان كانتا جحيمي في المعتقل.

لم أستطع التخلص منهما، رغم كل محاولتي إخراجهما، وعيش السجن كحياة أخرى مستقلة عمّا سبق، لأني تعلمت من قراءاتي الكثيرة عنه، أنّ على المعتقل أن ينسى العالم الخارجي كي يتمكن من الصمود، لأن الحنين والتعلّق بتفاصيل العالم الخارجي قاتل، فحاولت منذ انتهاء التحقيق تكييف نفسي على العيش هنا! لأنني كنت توقعت، استناداً إلى خبرتي من متابعة ملفات السجناء السياسيين والأحكام عليهم، أن أبقى ثلاث سنوات على الأقل، وهيّأت نفسي على هذا الأساس منذ البداية، إلا أن تمدد الانتفاضة، ومحاولة السلطة احتواء التظاهر ساهما بإطلاق سراحنا خلال أقل من شهر، فشكراً لكل الأصوات المجهولة التي هتفت: حرية.. حرية!

إلا أن معارف الكتب لا تصمد أمام امتحانات الواقع، إذ كان العالم الخارجي يتسلل رويداً رويداً من خلال المعتقلين الجدد الذين يحملون

معهم تفاصيل العالم الخارجي، خاصة أن الانتفاضة كانت تتمدد يوماً بعد يوم، مما جعلنا شديدي التعلق بأخبار الخارج، إضافة إلى أن الكثير من المعتقلين لم يقدروا على نسيان العالم الخارجي فكانوا يستحضرونه، مما يعيدك إليه، رغم ما في ذلك من منافع أحياناً، فوصول أخبار المظاهرات في الخارج بثّ فينا روح الأمل بأن ثمة من يفعل شيئاً لأجل الحرية/ حريتنا.

إلا أنه بعيداً عن هذا الجو العام، الذي كنت قادراً على عزل نفسي عنه بمجرد تغطية وجهي ببطانية السجن، فإن امرأتين لم أتمكن من طردهما، إذ كانتا تتسللان إلى روحي وعقلي تحت البطانية، الأولى تجعل الدمعة حاضرة في العين دوماً، والثانية طعنة القلب التي لم تبرح تسكنني منذ انفصلنا قبل شهرين من اعتقالي، فأبقى محاصراً بين وجهي خارج البطانية ووجهي تحتها، ففي الأولى يحضر العالم الخارجي من خلال أحاديث المعتقلين، وفي الثانية من خلال المرأتين، اللتين حوّلتا عالمي النفسي جحيماً.

الأولى: أمي، التي كنت أدرك أنها لا تنام الليل بسببي هذه الأيام، فأنا أعرفها جيداً، إذ كانت في الأيام العادية تحوم حولي كفراشة، وكلما اتصلت بها من دمشق تسألني كعادة الأمهات: ماذا تأكل؟ وهل تتغطى جيداً في الليل؟ وكأنني ما زلت في سن الطفولة! كانت روحي حزينة جداً لحجم الألم الذي أعرف أنها تعيشه بسببي، إلى درجة البكاء.

الثانية: هي المرأة التي أحبّ، والتي انفصلنا قبل شهرين من دخولي المعتقل، بعد قصة حب عاصفة وصلت إلى حدود الجنون المطلق، في الغوص في بحار الهوى والشغف والتحليق في متاهات اللذة والتصوف والغلمة والهتك والشبق.

كان القلب لم يزل يهجس بها، والجرح كاوياً وطرياً، بسبب الطريقة المؤلمة للروح والكرامة والقلب التي انتهى حبنا بها وإليها، وباءت كل محاولاتي للنسيان بالفشل، وقد لاحقتني تلك المرأة إلى الزنزانة، إذ حاصرتني برائحتها، بسبب بلوزة أهدتني إياها سابقاً!

في معتقل المخابرات الجوية، كنا مضطرين يومياً لخلع ثيابنا ولبسها ثلاث مرات، للخروج إلى التواليت، وهنا اكتشفت أنني أرتدي الكنزة الصفراء التي سبق أن أهدتني إياها من كانت حبيبتي، رغم أنني لا أعرف كيف ارتديتها، لأنني بعد انفصالنا أرسلت كل ما أهدتني إياه من ثياب إلى القرية بعيداً عن سكني في دمشق، لتسهيل عملية النسيان، إذ لم أكن قادراً على الاحتفاظ بها، ولا على التخلي عنها نهائياً، فكان الحل إبعادها.

بعد التفكير، اكتشفت أنه أثناء معرفتي في القرية بأن دوريات الأمن موجودة هنا، قمت بفتح خزانتي في القرية ولبس ما تيسر من ثياب على عجل والخروج من المنزل، دون أن أعرف ماذا لبست، ولم أنتبه أنني ألبس البلوزة التي أهدتني إياها إلا بعد أربعة أيام من الاعتقال، لأنه في فرع طرطوس كان التواليت ضمن الزنزانة وكنت مهجوساً بأمي، واليوم الثالث قضيته في التحقيق في دمشق.

أربكتني البلوزة جداً وكانت مصدر عذاب دائم، فأنا أريد التخلص من جرح المرأة التي أحببت و لم تزل تشاغب في القلب، وفي الوقت نفسه هناك هذه البلوزة التي عليّ أن أخلعها وألبسها ثلاث مرات يومياً، لتكون كل مرة جرساً، جرحاً، موتاً يذكّرك بها، الأمر الذي دفعني أكثر من مرة للبس ثيابي على عجل، والتظاهر بالنوم مغطياً وجهي بالبطانية، لأغرق في عوالم متناقضة بين تذكّر اللحظات الجميلة من عشقنا وبين الرفض الذي تدفعني إليه كرامة العاشق، فأتمزق بين الأمرين، وتبدأ بوابة الأسئلة: هل تعرف أني هنا الآن؟ هل هي حزينة؟ هل نسيتني؟ هل هي في أحضان حبيبها الجديد؟ هنا كنت أشعر بقلبي يعصر ببطء كما تفاحة في آلة عصر الفواكة، إلى درجة أنني كنت أشعر بانضغاط القلب رويداً رويداً، كلما تقدّمت آلة العصر سنتمتراً جديداً باتجاه ضغط التفاحة/ القلب، وإذ يتفتت القلب/ الفاكهة بوصول حركة الضغط إلى نهايتها أصل حد الاختناق: أشهق، أغصّ، أَئِنُّ، أتلوى، أموت، أحيا، فأرفع وجهي عن البطانية وأعود إلى عالم المعتقلين الخارجي، فهو أرحم بما لا يقاس من جنون القلب هذا.

ولكن عالم المعتقلين نفسه كان يعيدني إليكِ مرة أخرى، حين يجري الحديث عن المرأة والتجارب الجنسية التي لم يعد أمامنا سوى تذكرها كطعنة في الرجولة، عبر استحضارها إلى المخيّلة، وكنت تحضرين بمشاهدك الأكثر غواية وجنوناً وتهتكاً، أو عبر قراءة «الشعر الرزيل» الذي كان يطلب مني المعتقلون سرده لهم في الزنزانة، إلى درجة أن أطلقوا عليّ لقب «الشاعر الرزيل»، فتأتين عبر لحظات تجلّينا الصوفي/ الجنسي، حين كان الشعر والجنس يترادفان في لحظة أبدية خالدة.

كثيراً ما راودتني فكرة التخلص من الكنزة، بإعطائها لأحد المعتقلين إلا أنني استدركت أنني سأبقى أراه ما دام هو معي في الزنزانة، فجاءت فكرة التخلص منها نهائياً، إلا أن حس المعتقل البراغماتي بحاجته لأي شيء، وقراءاتي السابقة عن تجارب المعتقلين علّمتني قيمة الاحتفاظ بالأشياء تحسّباً لزمن طويل قد يقضيه المعتقل، فانتصر الحس البراغماتي على حساب تحمّل هذا الألم اللامتناهي الذي يعصف بالقلب والروح.

حين كنت أقرأ تجارب المعتقلين السابقين، كنت أبهر وأنتشي لدور الحب في الصمود، ولقدرة هؤلاء المناضلين على اختراع الحب وعيشه والتمسك به في أحلك الظروف.

وحين أقارن نفسي بهم، أشعر بالهزيمة والخيبة، فأنا دخلت هذا الميدان خاسراً ومجرداً من أسلحتي منذ البداية، فبدل أن يكون الحب نافذة أمل، أضحى قيد اعتقال!

أمل يعصف بالقلب

«على مفترق اليأس، ثمة أمل ما
في جهنم السكون، ثمة فرح/ ثورة صغرى
تخلخل هذا العدم!»

رغم أن الحب لم يكن أملاً، ثمّة آمال أخرى تأتيك في الزمن الذي تكون قد فقدت فيه معنى الأمل واليأس، ودخلت زمن الاستحباس، حيث تتساوى الأشياء ولا تعود تنتظر أملاً.

بعد نقلنا إلى زنزانة جماعية وإجبارنا على لبس البدلات الزرقاء الخاصة بالسجن، شعرت بأن الزمن القادم قد تحدد: اعتقال مديد لن تعرف زمن خروجك فيه. فكان اليأس رفيقاً، وانعدم بعد ذلك أي أمل، ثم تفقد المشاعر (أمل، يأس، فرح) معانيها المعهودة لتأخذ معنى جديداً يفرضه السجن، معنى يصعب التعبير عنه، إلا أنه يشبه منشفة غسلت آلاف المرات، لمدة عشر سنوات، فكيف يكون منظرها؟ شكلها ومنظرها قبل السجن يشبه الفرحة في الخارج، وشكلها ومنظرها بعد عشر سنين من الاستعمال يشبه الفرحة داخل السجن!

ومع ذلك، ثمة استثناء قد يعصف بالمشاعر ويثور على المشاعر المعلبة التي تسعى المؤسستان الأمنية والسجنية لجعلها خالدة أبدية، وهذا ما حصل حين تقدم إليّ أحد مناضلي داريا: «هل أنت الشاعر محمد ديبو؟».

«نعم».

شدّ على يدي بروح من تجمعهم قضية واحدة وقال لي: «أنا موفق من داريا، ولقد قرأت اسمك على صفحة المحامية رزان زيتونة على الفيسبوك تطالب بإطلاق سراحك؟».

يا الله، لو تعرفون حجم الفرحة التي غمرتني في تلك اللحظة! ثمة لحظة فرح خارجي تسللت إلى عتمة القبر لتزلزل كياني وتعصف بي، في دفق مشاعر لم أتوقع أنني ما زلت قادراً على تحسسها.

لو يعرف أحد قيمتها، لعرف الجميع، كم هي حاجة المعتقل إلى الدعم الخارجي والمطالبة به، وهو الأمر الذي جعلني اليوم لا أتوانى عن التعاطف مع أي معتقل ومساعدته مهما كانت الظروف.

إذ ذاك شعرت بفرحة غامرة، وأن خطتي نجحت، إذ كنت تركت لأهلي قائمة أرقام كي يتصلوا بها حال تم اعتقالي، كي لا ينجح الأمر في إنكار الاعتقال، ولذا فأنا مدين لجميع من ساهم في نشر الخبر، وعلى رأسهم الأصدقاء سمر يزبك وروزا حسن ولؤي حسين وعمر سليمان وموسى حوامدة من الأردن، والدكتور الناقد حسان عباس الذي رفع صوته عالياً في المركز الثقافي الفرنسي مطالباً بإطلاق سراحي، رغم الخطر، وكل الزملاء المثقفين والإعلاميين الذين رفعوا الصوت عالياً، وكل من لم تسعفني الذاكرة بتذكره هنا، وبالتأكيد رزان زيتونة التي لا أعرفها شخصياً والمختطفة اليوم (هي ورفاقها) من قِبل من كانت تدافع عنهم، في دلالة على متاهة الاستبداد التي نغرق بها، فمن يدافع عنك أمس تجد نفسك تدافع عنه اليوم وتطالب بإطلاق سراحه وكشف مصيره!

شعرت وقتئذ بأني لست منسياً، وأن ثمة من يتداول أمري في الخارج، وهو أمر كنت استشعرته من التحقيق، حين قال لي المحقق: «شو يا ديبو حابب تكون مشهور؟»، ولكن دون أن أتأكد، وهو ما أكده لي موفق الذي

سأعرف أنه كان معتقلاً سابقاً ضمن خلية داريا في عام 2003، وهو نفسه من سيحمل لنا أغنية سميح شقير «يا حيف» إلى المعتقل، لنشعر أن ثمة أخباراً منعشة من الخارج، فالخارج ليس دوماً ثقيل الظل، كما علمتني قراءة تجارب السجناء السابقين!

بعد زوال فورة الفرح هذه، بقيت أتحاشى أخبار العالم الخارجي إلا فيما يتعلق بالانتفاضة وتمددها، لمنع الأخبار الموهنة لنفسيتي (وليس لنفسية الأمة!) من التسلل إليّ.

الخوف وصناعته!

«إنه منشارُ الحياة
وعدُّوها السرمدي.
المكّونُ من:
خاء الخدَرَ
وواو الوجع
وفاء الفضيحة.
الظلُّ المتربصُ بنا
كذكرى..
كامرأة لا توقظ الشهوة»[3].

حين أفكر اليوم بما مرّ من عامين ونصف خلال الانتفاضة، أتذكر حجم الشجاعة التي سجّلها السوريون في كسر حواجز الخوف، بدءاً من تنظيم مظاهرة صغيرة بالقرب من فرع أمن، وليس انتهاءً برمي مناشير الحرية في الشوارع وتحدّي الشبّيحة وإيصال الإغاثة إلى المحتاجين.

إلا أنه من الشجاعة أن نعترف أيضاً، أن الخوف كان رفيقاً يومياً لنا. كنا في معركة يومية معه، نسعى لطرده والتخلص منه، بالعمل والنضال وعدم الركون لليأس. ننجح حيناً ونفشل حيناً.

فعلى مدى عامين ونصف لم يبارحني الخوف، إذ كثيراً ما كنت

3- من ديوان «لو يخون الصديق».

أستيقظ في الليل متعرّقاً، لأنجو في اليقظة مما كنته في الحلم. وكان هذا الخوف يتضاعف مع اعتقال كل صديق أو صديقة مقربين، فبمجرد وصول خبر اعتقال أحدهم، أشعر بالخوف وتبدأ تصرفاتي تصبح عصبية نوعاً ما، وأغلق موبايلي أحياناً، وأصبح كثير الالتفات في الشارع، ومتنبّهاً لأي حركة أو صوت خارج المنزل الذي إن طرق بابه دون موعد، يسقط قلبي بين رجلي إلى حين وصولي إلى العين الساحرة ورؤية الطارق، لتصبح الخطوات القليلة الفاصلة لي عن الباب خطوات في البرزخ الفاصل بين جنّة الخوف وجهنمه، إذ كنت أسمي الحياة التي نعيشها خارج المعتقل: جنة الخوف، وداخله: جهنم الخوف.

نعم هكذا أصبحت حياتنا: جنة وجهنم لخوف واحد. ألا يكفي هذا لإسقاط النظام؟!

شعب بأكمله يعيش في خوف من طرق الباب، ومن زيارات غير متوقعة، دون أي قانون أو دستور أو عرف حتى!

مرة كانت عندي صديقتي، المعتقلة سابقاً أيضاً، وفجأة طرق الباب دون موعد، فنظرتْ من عين الباب، وقالت لي، وهي ترتجف والأصفر يكسو محيّاها: «ديبو، الأمن على الباب!».

دقائق من اللاتفكير والذهول وتقصّف الساقين وسقوط القلب مرّت، قبل أن أتمكن من الوصول إلى الباب، فتحته ففوجئت بأصدقاء لنا (شاب وأخته) على الباب! واختنق صوتي للحظات قبل أن أتمكن من الرد عليهم، ونسيت دعوتهم للدخول!

أما كيف رأتهم صديقتي أمن، فهذا وحده يعطينا فكرة عن مدى فعل الخوف بنا، والمدى الذي نصله أحياناً، فنستحضرهم ليأتوا، وليصبح «عنصر الأمن» يحتل اللاشعور ويصبح الخوف رفيقاً، يساهم في تشكيل شخصياتنا وسلوكنا اليومي دون أن نشعر، إلى أن ينبّهنا شخص خارجي، فنشعر بهول ما يحدثه الخوف فينا، في اتجاهين متضادين:

الأول: تغيير عاداتنا خوفاً وتفادياً له في آن، فكثيراً ما نبّهتني صديقتي وأنا أمشي في الشارع: «ديبو ليش تتلفت كتير؟»، وكثيراً ما ضبطت نفسي أنظر من العين الساحرة للباب أكثر من مرة في اليوم، دون سبب سوى ما تخترعه المخيّلة.

الثاني: مراكمة الشجاعة لدحر هذا الخوف، لإدراكنا الضمني أنه لا يُكسر إلا بالنضال والمزيد من النضال، لأن الخوف هذا يندثر حين يكون لدينا نشاط ما.

ولهذا كنت كثيراً ما أعيش في لحظة واحدة قمة الخوف إلى درجة تقصّف القلب والركب، و قمة الشجاعة عبر القول: وليكن، هو دربي وأنا اخترته، وليس هناك حرية دون تضحيات!

وهذا ما حصل حين دعتني الصديقتان ربا حسن وميسا صالح إلى المشاركة في مظاهرة القيمرية (2011) ليكون أول نشاط لي بعد خروجي من المعتقل، إذ كنت متذبذباً بين الخوف والشجاعة، وحسمت أمري في اللحظات الأخيرة وشاركت، أنا والأصدقاء عمر يوسف سليمان وباسليوس زينو، وقد انتهت المظاهرة باعتقال عدد من الصديقات والأصدقاء، بينهم ربا وأليس مفرج.

بعد استقراري في الزنزانة رقم ستة في المخابرات الجوية، كنت مأخوذاً بحجم الخوف الذي يتم زرعه في الروح هنا، إذ رغم معايشتي للخوف في محطات كثيرة سابقة، إلا أنني لم أرَ خوفاً كهذا يقصف الروح ويرعدها إلى درجة الضآلة، فلو أردت أن أطلق صفة على المعتقل، لقلت أن أفضل صفة هي: مصنع الخوف. فهنا يصنع الخوف ويبرمج الإنسان على الطأطأة والذل طيلة حياته، إن لم يقدر على فهم تلك التجربة والخروج منها قوياً.

من خلال رصدي لمعالم الخوف في ذاتي ووجوه الآخرين في الزنزانة، أدركت أن للتعذيب مهمتين: الأولى آنية/ تكتيكية، والثانية خالدة

استراتيجية، وهما: انتزاع الاعتراف وغرس الخوف لا في القلب فقط، بل في مسامات الروح ونقيّ العظام، وفي كل خلية من خلايا الجسد.

هذا ما كان يحصل حين كنا نسمع أصوات صراخ المعتقلين تحت التعذيب، إذ كان صوت المعذّب يتحوّل إلى سيالة عصبية أو حقنة، تدخل الجسد وتتغلغل إلى مسام المسامات ونقي الروح وسويداء الجسد، فيصبح الوجه أصفر اللون والجسد جثة خوف متنقلة ويسكن في العيون خوف بهيمي ليس له علاقة بالإنسان، وهذا ما كانوا يريدونه: بناء جمهورية الخوف التي نسعى ونناضل لأجل تفكيكها.

هنا في المعتقل تعرف المعنى الفعلي لعبارة «الخوف» و«الدكتاتورية»، وتعرف أكثر المعنى الفعلي لكلمة «النظام» وأدواته القمعية، إذ كنت سابقاً أتوقع أن هذا النظام قابل للإصلاح، ولكن، حين خبرت أدواته القمعية عرفت استحالة ذلك، إلى درجة أنني بقيت أفكر في الأمر كثيراً، حتى توصلت إلى حقيقة أظنها إحدى طبائع هذا النظام: «صورة ملّمعة للخارج، عفن متأصل في الداخل»، إذ لم تكن مقولات الإصلاح والتحديث أكثر من محاولة لتغطية هذا العفن وتجميله، بدل السعي لإزالته، وأيُّ مسعى في هذا الاتجاه يعني وضع اللبنة الأولى في تفكيك النظام، وهو ما لم يكن (ولن يكون) مستعداً له بطبيعة الحال. وقد وصل بي التأمل والتدقيق في تلك الطبائع للنظام التي خبرتها هنا، إلى التفكير، بأنني حين أخرج سأكتب كتاباً تحت عنوان «عن تلك البلاد التي يحكمها الرجل الطويل»، يركّز على كيفية تمكّنه من خداعنا بمقولات الإصلاح والتحديث وغيرها.

كان النظام يسعى لتحويلنا إلى كائنات خائفة، في مصنع الخوف المخصص لتخويف من لم تحسن الأساليب الناعمة خارجاً في تطويعه، عبر الإعلام والاستدعاءات الأمنية ونشر ثقافة الخوف والرضوخ وتأليه الحاكم. ثقافة تعمل على جعل المرء تلقائياً يرسم خطوطاً حمراء لنفسه، فعبارات من نوع «الدبّان الأزرق ما بيعرف وينو» تفعل فعلها خارجاً في

تحويل كلمة «استدعاء أمني» و«فرع تحقيق» و«مخابرات» إلى أدوات تخويف تبرمج الإنسان على تفادي ذلك وفق آليات السيطرة الغامضة التي تفعل فعلها، بدءاً من نشرة الأخبار وليس انتهاءً باعتقال المعارضين الذي يراد منه تربية الجميع لكتم أي صوت معارض.

ومن هنا، فإن سورية مدينة جداً جداً للمعارضين الذي قضوا سنوات ناهزت الربع قرن وأكثر في الاعتقال، دون أن يسكتوا أو يرضخوا بعد خروجهم، فكانت أصواتهم النقرات الأولى في كسر جدار الخوف هذا، وهي تشبه فعل الماء البطيء في كسره لصخرة الدكتاتورية وإفشال وصفات مصنع الخوف.

المؤلم اليوم أن هؤلاء المناضلين يتعرضون للشتائم والتحقير.

هل يمكن لثورة تنكر تاريخ مناضليها أن تنتصر؟

جرس بافلوف

«الجرس: موسيقا الاستبداد»

أول شيء فعلته في منزلي الجديد، بعد عودتي إلى دمشق، هو نزع جرس المنزل، إذ لم أكن قادراً على سماعه. هذا ما اكتشفته بعد خروجي، إذ كان الرنين يعيدني إلى هناك، حيث صوته يحفر القلب بسكين!

الرنين، يا إلهي: كم بشع هذا الصوت، بقدرته على زرع الخوف في نقي الروح وتلافيف المخ. من اخترعه؟

لو كان بافلوف يدرك أن تجاربه ومكتشفاته ستنتهي هنا، فهل كان منحنا علمه؟

ألم يكفّر «نوبل» عن خطئه باكتشاف البارود؟

ولكن ماذا يفيد التكفير وجوائز نوبل بعد أن حصد البارود من حصد، وكان مقدمة لاكتشافات أشد تدميراً وفتكاً؟

صوتان للرنين كانا يحكمان حياتنا في المعتقل: الأول ناعم كصوت قاتلة محترفة تتقن العمل بصمت، والثاني فج كعاهرة تعلن قبل وصولها إليك أنها ستقتلك.

الأول: إيذان بمولود جديد يضاف إلينا!

الثاني: بدء رحلة عذاب قد تنتهي بمفقود تحت التعذيب.

عند سماع الصوت الأول يفتح الباب الخارجي للسجن، ليدخل معتقلون

جدد لا نلبث أن نراهم ممددين وهم مقيّدون في الممر، فنحدد من عدد الرنّات عدد المعتقلين الجدد تقريباً، وهذا مؤشر لما يحدث في الخارج، فكلما كانت الرنّات كثيرة فهذا يعني معتقلين كثراً وأنّ الأمر في الخارج ليس على ما يرام.

عند سماع الصوت الثاني، تتقصّف الركب ويجفّ الريق ويستنفر القلب، لأن المحقق يطلب أحداً ما، وتتابع آذاننا وقع خطوات السجّان المقتربة من باب الزنزانة، التي تحدد رد فعل قلوبنا الخائفة، فإذا عبرها نتنفس الصعداء وترتاح العيون، وإذا وقف أمامها وبدأ بفتح الباب، تغوص القلوب في مستنقع الخوف، إلى أن ينطق اسم الخارج للتحقيق، فنودّعه بعيون مشيّعة، ولكن مليئة بالحبور والنذالة لنجاتنا من التحقيق، في تناقض رهيب.

لا شك أن مهندس السجن يعرف قدرة صوت الرنين على إثارة المنعكسات الشرطية واللاشرطية وفق نظرية بافلوف، فوضع تلك الأجراس لنبقى الجراء التي لا يغادرها الخوف، مما دفعني لتسميته جرس الدكتاتور!

أيّة قلوب مجرمة هذه؟!

كيمياء الجسد: معنى الحرية

أستغرب حين أبقى اليوم في التواليت زمناً طويلاً، كيف كنا نفعلها في غضون دقيقة واحدة، هي الوقت المخصص للدخول والخروج من الحمّام؟!

لم أفلح في المنزل في الخروج من التواليت قبل خمس دقائق، وأحياناً أبقى مدة ربع ساعة، فكيف كنّا نفعل ذلك بغضون دقيقة؟

يبدو أن الجسد يبرمج آليات مقاومته الخاصة به، وفق البيئة المحيطة به. الأيام الأولى تكون جحيماً، ولكن فيما بعد، يتدرب الجسد ويتكيف مع الأوضاع الجديدة، بدءاً من حجم كمية الماء التي يشربها المرء، إلى حجم الطعام الذي ينبغي تناوله، بما يجعل المدة الفاصلة بين شرب الماء وهضم الطعام وعملية إنتاجه في فضلات، تتناسب مع المدة الفاصلة بين نوبتي خروج للحمّام.

شخصياً عرفت حاجات جسدي، فكيّفتها بربع رغيف خبز كل وجبة، ونصف كأس ماء، لتيسير عملية إفراغ الفضلات في غضون دقيقة، كنت أستغلها أيضاً في غسل تحت إبطي ورجلي وعانتي، لمحاربة القمل المنتشر في كل الثياب والجسد!

وتحسب أنك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

هذا البيت تشعر بقيمته الحقيقية وأنت ترى نفسك تفعل كل هذا في دقيقة.

مرة قال لي أحد الأصدقاء إن أحد السجناء الذي قضى ثمانية عشر عاماً في المعتقل، قال: «لم يكن عندنا وقت في تلك الأيام (أيام الاعتقال)».

الأمر مدهش حقاً من جهة، ولكنه يحمل إدانة مبطنة لنا الذين كنا نحيا خلف القضبان، ونقضي حريتنا في أشياء تافهة!

ترويض الوقت والقدرة على استثماره أحد أدوات الصمود، حتى لو لم نعترف بذلك، فدون هذه الآلية لا يمكن الصمود، لأنه يعني وضع الجسد في مواجهة يومية مع بيئته الجديدة، وهو يضعف آليات المقاومة.

السؤال المربك الذي يحاصرني اليوم: كم من الوقت يضيع في عالم الحرية دون فائدة؟

ولكن من جهة أخرى، أليست الحرية في أحد معانيها هي حرية أن تبدد وقتك في أشياء تافهة لا معنى لها أحياناً؟ أن لا تفعل شيئاً، وأن تأكل وفق ما تريد، وتبقى في الحمّام الوقت الذي تشاء، وتتمرد على قوانين الوقت ومؤسساته، وتضيّع وقتك في الثرثرة مع أنثى عابرة لمجرد أنها جميلة أو مثيرة!

الحرية: كم هي شأن عادي وطبيعي وغير لافت للانتباه، حين نملكها ونصبح أسرى لها.

هل لا بدّ من معتقل ما، استبداد ما، لنشعر بأهميتها؟

سرّ الحرية يكمن في عدم الإحساس بها حين نمتلك حريتنا/ حياتنا، فنعيشها دون تثقيلها بتفخيم الحرية وتعظيمها وتقديسها وأدلجتها، فنحياها بمثل هذا الاستهتار لتأخذ معناها هنا بالضبط، لأن كل مقدّس قيد، وكل أدلجة هي قتل للطبيعي والعادي والتافه الجميل.

عيش الحرية بوصفها مقدساً هو تزييف لجوهرها، وعيشها كحلم قد تفقده في أي لحظة خوفاً من موت أو اعتقال (كحالنا اليوم) هو أيضاً تزييف.

حين نعيشها دون أن نحس بها أو نضطر لتسمّيتها حتى، نصبح أحراراً حقيقيين.

الحرية أن لا تشعر أنك حر، أن تعيشها كما تتنفس.

من هو الشهيد؟

صفة الشهيد مجرد بلاغة زائفة لتجميل الموت!

أثناء كتابة هذه الصفحات أرّقتني مفردة الشهيد، أنا الممزق بين عالمين يموت على ضفة الأول أهلي وعلى ضفة الثاني أصدقائي.

أربكني الأمر وأنا أكتب هذه الكلمات، لأني أرفض الاستبداد والإرهاب معاً!

في البداية كان الأمر واضحاً بين استبداد وحرية، إلا أنّ تعقُّد المعركة لاحقاً بين الاستبداد والحرية من جهة، والدولة ومن يعلن بوضوح معركة تدمير الدولة السورية، وبين الدولة والإرهاب، وبين تدخّل القوى الخارجية في سورية لصالح مشاريع إقليمية (حزب الله، النصرة، داعش، أبي الفضل العباس..) عقّد من مسألة الفصل هذه، وبالتالي صعّد من مسألة الضمير الأخلاقي الذي لم يزل يحاصرني في وصف «الشهيد»، نظراً لما للشهيد، في لغتنا وثقافتنا، من احتفاء بلاغي وقيمي وقدسي.

أنا في صفوف المعارضة لأني أرى أني أمثّل قضية إنسانية عادلة تتمثل بإزالة مرتكزات الاستبداد الذي جثم على صدورنا نصف قرن، وبالتالي فإني تلقائياً ألفظ لقب «الشهيد» على من يسقط وهو يناضل لإعلاء قيم الحرية والعدالة لبناء الدولة الديمقراطية العلمانية، ولكن في الضفة نفسها يقف من يعلن الإرهاب، ويتبنى تفجيرات في مناطق مدنية، ويستنجد بمقاتلين وأسلحة من الخارج، في سبيل إقامة دولة إسلامية حضارية، أو دولة العراق والشام أو...

وفي الضفة الأخرى يسقط أهلي وأقاربي، بعضهم سقط وهو يقاتل مع قوات النظام دفاعاً عن الدكتاتور شخصياً لأسباب طائفية، وبعضهم يقتنع أنه يدافع عن الدولة السورية بوجه الإرهاب، وبعضهم سقط في تفجيرات سيارات مفخخة، وبعضهم سقط وهو في مركز عمله.

من يحدد من هو الشهيد في هذه الحالة؟

هل القضية المُدافع عنها هي من يحدد معنى الشهادة؟

ألا يطلق النظام وأنصاره على من يموت في ضفة المعارضة: «إرهابي»؟

ألا تطلق بعض المعارضة وأنصارها على من يموت في ضفة السلطة: «فطيسة»؟

الجندي الذي يُقتل ضمن قوات النظام، أليس هو مقتنعاً بأنه يدافع عن الوطن، وهو ذاهب بملء إرادته وإيمانه للشهادة؟ وإلا لكان ترك بندقيته وهرب؟

الجهادي الذي يأتي من خلف الحدود، (سواء كان من حزب الله وأبي الفضل العباس، أو من القاعدة والسلفيين والجهاديين والنصرة وداعش..) أليس هو مقتنعاً بأنه يجاهد ويستشهد في سبيل قضية عادلة؟

هل قيم «الشهيد» الفردية، أم قيم الجماعة التي ينتمي إليها، هي من يحدد؟ أم ثمّة قيم عليا متفق عليها وينبغي ألا نحيد عنها، وهي الحرية والاستبداد؟ فمن يسقط في ضفة الحرية فهو شهيد، ومن يسقط في ضفة الاستبداد فهو قتيل؟

ولكن حتى هنا يصعب الفصل، أليس من يسقط في ظل «مكافحة الإرهاب» هو شهيد لأنه يمنع الإرهاب؟ أليست داعش والنصرة فصيلين إرهابيين، وبالتالي فمن يسقط بمواجهتهما شهيد ومن يسقط معهما قتيل؟

رغم ذلك. ثمة أشياء واضحة جداً لا مجال للّبس فيها، فمن يموت في مظاهرة تصدح ضد الاستبداد هو شهيد، ومن يموت في معتقل وهو يحمل

قيمة الحرية في قلبه هو شهيد، ومن يموت في صف الجيش النظامي وهو يعتقد أنه يدافع عن وطنه بوجه الإرهابيين (النصرة وداعش) هو شهيد.

من يموت في سبيل الطائفة أو الدين أو المستبد أو الجهاد هو قتيل.

من يموت في تفجير أو قذيفة هاون هو ضحية.

هل هذه التصنيفات صحيحة؟ أخلاقية؟

لست متأكداً! ضميري الأخلاقي يؤنبني، وليس لدي دليل أو متكأ، سوى أسئلتي المضطربة.

ضميري يؤنبني لأن القيم والموقف الأخلاقي يحتلان دوراً بارزاً في صياغة دور المثقف ومعناه، ولا بدّ من تحديد هذا الفصل بدقة لتحديد أفق النضال ومعناه ومنحه بعداً إنسانياً.

ولكن ماذا إن كان المثقف نفسه حائراً؟

أشعر بالعار لموت كل هؤلاء!

أبناء درعا

«يا نبي الفقر

لم يزل وجهك حرقة بقلبي

كم أتمنى لو فهمت لغتك، لأفهم سرّك

آه.. لو أعرف ماذا كنت تقول لي في تلك الليلة،

لفهمت سرّ درعا وثورتها!».

بعد عشرة أيام من وجودنا في الزنزانة، أدخلوا شاباً في الثلاثين من العمر، تبدو عليه أمارات الضرب والتعب والجنون!

رجل يمثّل الفقر الذي أراد الإمام علي قتله، حين قال: «لو كان الفقر رجلاً لقتلته!». إلا أني واثق أنه لو رآه لما قتله، إذ كيف يمكن لأحد أن يقتل «درعا» الثائرة؟

المدينة التي دخلت معتقلنا من بوابة ثورة تندلع في الخارج ولا نعرف عنها شيئاً، إذ كان هذا الرجل رغم جنونه (أليست الثورة محض جنون أصلاً؟ وهل يجرؤ عليها غير المجانين؟) يمثّل القاع الذي يثور ضد تفقيره وتجهيله وتجريمه!

«محمد علي ديب» أو «حسين» أو غيرها من أسمائه المتعددة التي كان يبدّلها كما نبدّل الثياب، فقيراً، مشعث الشعر، وسخ الثياب والجسد، كان مجنوناً أو يمثّل الجنون كي ينجو مما فعله، أحال أيامنا القليلة التي قضاها معنا إلى جحيم، لأن رائحة تغوطه في ثيابه خنقتنا، ولأنه حين يأكل يبدو

كإنسان لم يذق الطعام مذ ولد، محوّلاً أرضية الزنزانة كلها إلى مائدة طعام، في الوقت الذي كنا نسعى جاهدين للحفاظ على النظافة ما أمكن، إضافة إلى قيامه بإحضار السجّانين في أي وقت إلينا، إذ لم يكن يتقيّد بأي وقت سوى وقت روحه، للخروج إلى التواليت، فبمجرد حاجته للخروج يقف ويطرق الباب إلى أن يأتي السجّان الذي يدخل ليضربه أحياناً، وينفذ له رغبته أحياناً أخرى.

تصرفاته هذه نفّرت العديد من المعتقلين منه، إلا قلة، بينهم أنا، بقينا نتعامل معه وفق ما يسمح لنا، نحاول «تهذيب» روحه وعاداته وسلوكه، ودفعه لأن يأكل على الأقل بهدوء، دون أن يبعثر الطعام في كل أنحاء الزنزانة، وأن يغسل بعد الطعام.

إلا أنه في الوقت ذاته أدخل إلى زنزانتنا مفردات جديدة بتنا نتداولها تندُّراً، لتقطيع وقت السجن ونسيان وطأته الثقيلة، فعبارتا «يا أخي»، و«يا زميل» اللتين قالهما للسجّان، في الوقت الذي يُمنع مخاطبة السجّان بغير كلمة «سيدي»، أصبحتا مناسبة للضحك في المعتقل كلما قال أحدنا للآخر «يا زميل»! إضافة إلى أنه لا يمكن لأحدنا أن ينسى لحظة أن طلب من السجّان الخروج للحمام، وحين رفض السجّان أخرج له عضوه الكبير، وقال له: «واللّه بدي أعمل بشّي، شوف!».

كنت في قرارة ذهني أشعر أنه يمثّل دور الجنون، لأني كنت ألمحه يستمع إلى ما نقول، حين ندخل في حديث سياسي، لذا سعيت للتعامل معه على هذا الأساس. وحين كانت تلتقي عيني بعينه، أشعر أنه يعلم بأني كشفته، فكان يهرّب عينيه من عيني، ومع ذلك بقيت أتعامل معه كإنسان بحاجة إلى رعاية واحتواء خاص، إلى أن وضع يده عليّ مرة، بعد أن نام كل من في الزنزانة، نظرت إليه، فرأيت وجهاً لم أره من قبل: عيناه صافيتان ومليئتان بحبور وخوف لم أره من قبل، وقار وهدوء رجل يعرف ما يريد، مومئاً لي بإشارات لم أفهمها، ناقلاً يديه بين صدري والإشارة للسماء،

محاولاً القبض على لغة توصل لي ما لم يقدر على قوله، وإذ نهضت وحاولت أن أفهم ماذا يريد وأستفسر منه، صرخ السجّان في الخارج، فخاف الرجل وأدار وجهه نحو الحائط دون أن أفهم شيئاً، إذ لا أزال حتى هذه اللحظة أشعر بحرقة القلب كلما تذكرته، لأني لم أفهم سره، ولم أعرف ماذا كان يريد أن يقول لي في تلك اللحظة؟ وبمَ سيبوح؟!

استحضار الدين!

«لم تكن الصلاة يوماً للخالق
إنما لنا
نصلي لأجلنا
ولهدهدة الخوف الكامن فينا من المجهول!».

لم أكن أتوقع يوماً أنني سأصلي، ولكن هذا ما حصل، إذ تكتشف في المعتقل أن الصلاة حاجة أكثر مما هي تعبّد لخالق لا تعرفه ولا يعنيك أمره.

وسط دوامات اليأس والضعف والشعور بأنك وحيد وضعيف وذو مصير مجهول، تكون الصلاة واحدة من المتنفسات التي يستعين بها المعتقلون لمواجهة مصيرهم هذا، إذ كان الجميع يقوم بالصلاة التي يبدو أنها كانت تغيظ السجّانين الذين يسمعون تمتمات المعتقلين، فيصرخون: «اطّمّن! اللّه ما رح يسمعك هون!»، محاولين قمع هذه الصلوات الصغيرة.

هل لأنهم يعلمون سلفاً أنها موجّهة ضدهم؟ أم لأنها تذكّرهم بما يتصرفون، وبأن أفعالهم غير شرعية وتستوجب العقاب؟!

اكتشفت أنني لا أعرف كيف أصلي، ولأنني خجلت أن أطلب منهم تعليمي الصلاة، لجأت إلى حيلة استحضرتها الذاكرة، حين كانت أمي تسرد حولي أدعيتها منذ الطفولة، اكتشفت أن عدداً غير قليل من هذه الأدعية محفوظ في المخ، رغم مرور أكثر من ثلاثين عاما عليها، فبدأت بترديدها كنوع من الصلاة!

إلا أن الأمر لم يمر بسلام، إذ فتح أمامي بوابة أسئلة كبرى عن اللّه والدين والصلاة ومدى الحاجة إلى خالق نخترعه حين حاجته، ورغم إدراكي كل ذلك استمررت بصلاتي الخاصة هذه إلى حين خروجي من المعتقل، لأكتشف أن الدين ثقافة مكوَّنة في نهاية المطاف، وتحتاج إلى زمن طويل حتى يتم التخلّص منها، وهو متعذر دون دخول ثقافة أخرى تحتل هذا الحيز الذي يخسره الدين لصالح الحداثة أو أي شيء آخر.

وهنا، كنت أتذكر في المعتقل ما قاله لي مرة في رسالة إلكترونية الصديق المفكر جورج طرابيشي، حين كان يتناقش مع المفكر الراحل نصر حامد أبو زيد حول الدين، إذ قال جورج لنصر إنه يسعى للتخلص من لفظ كلمة اللّه نهائياً في مفرداته عندما يتكلم، فأجابه نصر إنه من المستحيل ذلك. وفي نهاية الحديث وجد جورج نفسه وهو يجيب عن سؤال سأله نصر عن موعد صدور كتاب له بقوله: «إن شاء اللّه قريباً!»، فسارع نصر يقول له: «أرأيت؟»، ما يدل على أن الدين موروث وتراث وثقافة مكوّنة لا يمكن طرده والتخلص منه بسهولة، قبل أن يتكوّن موروث وتراث وثقافة حداثية على قدر من التراكم بحيث يتاح استبعاد الدين من المجال العام للبشر.

اصمت، إنك في حضرة الموت والثورة!

«الضجيج سكون
الصمت ثورة!»

اكتشفت أننا أثناء نشاطنا في خضم الانتفاضة ننسى الموت، إذ رغم حضوره اليومي وكثافته، وتناقص عدد السوريين يوماً بعد يوم (إما للموت أو للهجرة) نتجاهل أن الموت قريب منا إلى هذا الحد، ويبقى جلّ تركيزنا على عدم الوقوع في شرك أجهزة الأمن، وكأن أقصى خطر سنتعرض له هو الاعتقال، وكأننا في منأى عن الموت!

هذا ما أفكر به بعد أن سقطت قذيفة بعيدة عني مسافة دقيقة واحدة، و أخرى مسافة خمسين متراً عن بيتي.

لم يكن رد فعلي هو البارد فقط، بل أيضاً رد فعل الناس الذين انتبهوا للحظة واحدة وعادوا إلى نومهم/ حياتهم الطبيعية، وكأن القذيفة من طبائع الأمور: امرأة بكامل أناقة الأربعين وشهوتها تصرخ بزوجها: «ولك يلا تأخرنا عليهن!»، بائع يكمل مساومة المرأة على ثمن قطعة الثياب بعد أن عطّلتهما القذيفة للحظة.

صديقتي تتصل بي ساخرة: «ديبو سقطت قذيفة على يميني وقذيفة على شمالي، والله مارح أترك النبوة لو موت!».

هل هو استهتار بالحياة أم تمسّك بها عبر السخرية من الموت وتطنيشه؟

أم شعور العجز أمام الطائرات التي تقصف والدبابات التي تضرب والقذائف التي تنهمر؟

في مثل هذه اللحظات أؤنب نفسي على استهتارها، إذ كيف يستوي أن أستهتر بالموت ولا أحتاط منه، وأنا الذي يقدّس الحياة ويدعو إلى اعتبارها أهم من كل شيء حتى من الشهادة في سبيل الوطن ذاته، رافعاً قيم النضال السلمي بوجه العنف، انطلاقاً من إيماني بقيمة الحياة، ورافضاً كل دعوات التسليح والعسكرة التي فاضت بها الأرض السورية؟!

في حضور الموت، اكتشفت أيضاً أن العمل والنشاط والمشاركة والكتابة في الداخل ميزتها الوحيدة الغرق في اللحظة الراهنة دون القدرة على رؤية المشهد كاملاً عن بعد، وهذا يجعلك تغرق في التفاصيل: كتابة مقال، تأمين بطانية لطفل جائع، دواء لمريض، ربطة خبز لصديقة لم تعثر على الخبز منذ عشرة أيام، مشاركة في مظاهرة.. هذا كله يبعد عنك شبح الموت المحيط بك، تتناساه، أو تُجبر على تناسيه، لأن اليومي/ الزائل/ المعاش يستهلك الخالد/ المطلق/ الموت ويفنيه، وهذا هو سر الحياة: أن تعيش وحسب.

وهذا ما يفسر لي ربما أن أصوات ناشطي الداخل تبقى خافتة، لأن الموت أصبح رفيقهم اليومي، ولا وقت لديهم للنواح أصلاً على الشاشات التي صبغها الدم السوري، في حين أن أصوات من هم في الخارج تبدو أعلى نبرة، إلى درجة أنها تقلقنا نحن الذين نموت هنا، وتشعرنا بأننا نناضل أقل مما يجب!

دائماً أتساءل: لِمَ يصرخ هؤلاء على الشاشات؟ لِمَ يتاجرون بموتنا؟ هل حقاً يتألمون كما يقدّمون أنفسهم؟ وهل لو كانوا هنا ستبقى أصواتهم مرتفعة بهذا الشكل، أم سيأخذهم الواقع السوري إلى العمل بصمت، لأن درب الحرية طويل ويحتاج إلى الكثير من الصبر، عكس ما يظن الكثيرون واهمين؟!

الأهل قيد!

«لا أحد يقف ضد الثورة أكثر من وعي أبنائها الزائف بها!»

كما كانت أمي قيدي الدائم، سيكون أهل المعتقلين قيودنا وقيودهم في آن، إذ كثيراً ما كنا نصطدم برغبتهم في عدم نشر أي شيء يتعلق بأبنائهم حين يعتقلون، فنبقى ممزقين بين تنفيذ رغبة الأهل التي لا يحق لنا تجاوزها، وبين واجبنا المتمثّل بتحويل قضية المعتقل إلى قضية رأي عام، ومنعه من التحوّل إلى رقم يُنسى في سجلات حقوق الإنسان أو زنازين المعتقل، لفضح السلطات وتشكيل سلطة معنوية للضغط عليها، ولتأمين محامٍ يتولى مهمة الدفاع عن قضيتهم ومتابعتها والمطالبة بها أمام المحاكم رغم شكليتها، كما أن المعتقل يكون سعيداً حين يخرج ويرى تضامن الأصدقاء معه، فيشعر أنه ليس وحيداً، ويتمكن من الصمود خاصة في الأيام الأولى لخروجه إذ يكون ما زال أسيراً لهذه التجربة الصعبة، خاصة إن كانت الأولى.

حين اعتقلت صديقتي، رفض أهلها أي كلام عنها أو حتى إشهار خبر الاعتقال، لخوفهم عليها، ولسعيهم إلى حلّ الأمور عن طريق بعض المعارف، الأمر الذي وضعنا في حيرة من أمرنا، لمعرفتنا بأن الأجهزة لن تفعل إلا ما تريده في نهاية المطاف، لأنه حتى لو خرجت، فإن هذا يعني أنهم ليسوا متأكدين من التهم الموجّهة لها، لا لأنهم نجحوا في إخراجها كما يتوهّمون.

هذا الوعي الزائف بالنظام وطبيعته شكّل أكبر القوى الضدية الكامنة في الثورة، فالأهالي، الذين هم مع الثورة بمشاعرهم، تأتي تصرفاتهم الناتجة عن طبيعة وعيهم لتصب في المسار الضدي للتغيير، لأنه لا يمكن تغيير الأشياء بوعي قديم وبأدوات تشبه أدوات النظام التي تنتج استبداداً آخر.

لم نكن نرضخ دائماً لرغبة الأهل، وهذا عائد إلى الصديق المعتقل، إذ كان بعضهم يصرّ علينا أن لا نرضخ لرغبة أهله، وأن نفعل واجباتنا بفضح السلطة، لإدراكه أن سكوت الأهل لن يغيّر شيئاً.

ضمن المسار العام للثورة، ثمة ثورات صغرى: ثورة الأبناء على الأهل، ثورة الزوجة ضد الزوج، ثورة المرأة ضد تقاليد القطيع.

الحكاية غير الرواية!

«الحكاية تُروى، الرواية تُقرأ، المعتقل يُعاش!».

باعتباري «مثقفاً» كان المعتقلون يطلبون مني قراءة الشعر لهم، وهذا ما كان. وحين عرفت مزاجهم أصبح الشعر الإباحي رفيقنا اليومي، إلى درجة أنني حين كنت أقول لهم شعراً خارج هذا المجال، كانوا يتململون بانتظار أن أنتهي منه، وإذ يطول بي المقام يصرخ أحدهم: «بدنا شعر رزيل معلم!»، فأصبحت: «الشاعر الرزيل».

بعد ملل الرفاق في الزنزانة من الشعر باتوا يطالبون بحكايات، وحين قلت لهم إنني لا أعرف حكايات، قال أحدهم: «احكيلنا الروايات يلي قريتا!».

في اليوم التالي حين هممت بحكاية رواية لهم، اكتشفت عجزي عن ذلك، رغم أن كل تفاصيل الرواية موجودة في ذاكرتي، وأكاد أتحسسها وأعيش مشاهدها، واكتشفت أن الرواية لا تفصل عن اللغة.

الحكاية تُروى.

الرواية تُقرأ.

أما الاعتقال فلا يُروى ولا يُقرأ ولا يُكتب.

كل كتابة تقزيم وشرح لتجربة لا تُشرح ولا تُروى.

تجربة لا بطولة فيها سوى الخوف.

الكل يراقب الكل!

«أقصى حالات الاستبداد، أن يصيّرك المستبد «عيناً» تراقب، وقلباً يخاف، فتمارس عمل المخبر دون أن تدري».

خلف مظاهر الحياة الطبيعية في المناطق الهادئة التي لم تثر ضد النظام، وتُصنّف مؤيدة بشكل غبي، ثمّة توتر أقصى مكبوت، غضب صامت، توجّس تعكسه العيون القلقة: الكل يراقب الكل.

جيرانك في البناية أو سكان الحارة التي تقطن فيها لا يتركون تفصيلاً صغيراً لا ينتبهون له، وكلٌّ بحسب أهدافه وتفكيره، فالمعارض يخشاك أن تكون مخبراً أو شبّيحاً أو أمناً، والموالي يخشى أن تكون معارضاً وتنقل الأخبار للمعارضة المسلحة، والخوف الأكبر لدى الجميع من الحرامية والسارقين والمغتصبين الذين ينتحلون صفة الطرفين لتحقيق مآربهم.

هذا الخوف على الأمن الذاتي (وأغلب الأحيان بالتنسيق مع أجهزة الدولة في المناطق الصامتة) خلق لدى الناس عادات وممارسات جديدة، أهمها التلصص، فبمجرد خروجك من البناية أو الحارة ثمة من يقف على البوابات ويترصد ويراقب.

تشعر بالأمر من العيون التي تنظر جانباً وتتابع ما في يدك إن كنت تحمل شيئاً. وقد وصل الناس إلى حد تنظيم شؤون أمنهم بذاتهم أحياناً، فالشباب الذين تراهم أمام بناية أو مجموعة محلات ليسوا أكثر من عيون تترصد، هذا ما اكتشفناه مرة حين أرادت صديقتي أن تترك الشقة، فاكتشفنا أننا كنا تحت مرمى الأعين بطريقة أو بأخرى.

بمجرد خروجي أو دخولي من المنزل وسماع أصوات خطواتي أو فتح الباب، كنت أشعر أن ثمة عيوناً تقف خلف الأبواب المجاورة لباب منزلي. للوهلة الأولى ظننت أن الأمر من تأثير تداعيات وكوابيس الخوف الكثيرة، إلا أن تدريب عيني على التدقيق في العيون الساحرة للأبواب المجاورة أوصلني لتمييز العين التي يقف خلفها أحد من تلك التي يشع منها ضوء صغير إن لم يكن يقف أحد خلفها.

في ظل هذا الخوف اكتسب الناس عادات المخبر تلقائياً، فتحوّلت إلى عيون يراقب بعضها البعض الآخر، وأصبحت، بطريقة غير مباشرة، موظفة ضمن آليات السيطرة الغامضة للسلطة التي تفرض مناخاً من اللاأمن والارتياب والشك، بهدف إضعاف تلاحم البشر وتقاربهم، لصالح القيام بما يؤذيك حين يشعرون بالخوف منك أو حين يشكّون بتصرفاتك مدفوعين بغريزة حماية الذات والحفاظ على أمنهم، وقد حصل الأمر مع بعض الأصدقاء الذين جاء «شبّيحة» الأحياء لتفتيش منازلهم فجأة.

يهزمنا الاستبداد حين نمارس ونتبنّى أفعاله.

أبناء الشبّيح!

في البناية المقابلة لسكني القديم كان يوجد «شبّيح». أراه مساء كل يوم يضع سلاحه في السيارة ويذهب تاركاً عائلته وأولاده الصغار.

أفكر به كثيراً، متسائلاً: لماذا يذهب إلى الموت؟ هل هو مقتنع بما يفعل؟ أم أن حاجته للقمة العيش هي ما يضطره؟ كيف يستطيع أن يحضن أبناءه الصغار باليد نفسها التي يكبس بها الزناد ليقتل رجلاً آخر له عائلة مثل عائلته؟

ألا يخاف على أبنائه وعائلته من انتقام من يقتلهم هناك إذا عرفوا به؟

إذّاك شعرت بالخوف على أطفاله الصغار الجميلين كأنهم أبنائي!

مرة اشتهيت أن أحضن أحدهم في الشارع لجماله، وإذ اقتربت نحوه شعرت بخوف، فظِلّ الأب رفرف للحظات بيننا، فابتعدت!

في اليوم نفسه، عاد الأب بسيارة فخمة غير سيارته الأولى.

في اليوم التالي رأيت الابن يركب السيارة الجديدة بجانب أبيه فرحاً!

....

من يحمي الأبناء من القتلة/ الآباء؟

وكالة أنباء الحمام

استيقظت يوماً على صوت حمامة تهدل على غاز مطبخي.

من مكان نومي كنت أراقبها وأتأمل جمالها، مفكّراً بما دفعها إلى المغامرة بالدخول، وهي التي لم تكن تفعل سابقاً، وإذ رأيتها تأكل ما تبقى على الغاز من فتات طعام، أدركت: إنه الجوع والأمان!

الطائرات التي احتلت سماء وطن الحمام لتقصف المدن والبلدات، دفعت الحمام لتغيير عاداته، وهو يئن إذ يرى مواطنه تتحوّل إلى منطلق لقصف الحياة.

من منزلي حيث تقف الحمامة معي، كلانا يتأمل القذيفة النارية اللون وهي تخرج من الطائرة باتجاه الأرض: تقف الطائرة فوق المنزل تقريباً، لتقصف منطقة أخرى في الجهة المقابلة.

تهدل الحمامة، يئن قلبي، أمد يدي لأمنع القذيفة، أحدّق بالطيار عله يتراجع.. تدور الطائرة وتعود مرة أخرى، لتقصف، فأغمض عيني لأتخيّل أشلاء ومسلحين وبيوتاً مدمرة وأطفالاً بعمر الورد أضحوا رماداً.

رغم تعوّدي على كل شيء حصل، إلا أنني لم أقدر حتى اليوم أن أتعايش مع الطائرات وأتعوّد وجودها، ربما لأن أسراب الحمام التي أراها من نافذتي يومياً تحلّق في السماء ناشرة رايات الحرية وعدم الاستسلام، تذكّرني بأن الأمر ليس طبيعياً ولا يجوز أن نتعوّد عليه.

حين تصعد الطائرات إلى السماء، يطير الحمام بطريقة جنونية

مرعبة. تتكاتف الحمامات في السرب محتمية بعضها بالبعض الآخر، لتهرب في اتجاه ما، خائفة ومقاومة في آن.

أغمض عيني لأسمع صوت خوفها رغم صوت الطائرات الهادر، يرتجف قلبي معها، متخيّلاً كل حمامة طفلاً سورياً ستقتله قاذفات الطائرات بعد قليل.

تبقى الحمامات تطير بشكل هستيري في السماء ما دامت الطائرات تحلق وتقصف، وكأنها تقاوم الطائرة التي تحتل وطنها وفضاءها وتستعمره، وتبقى على هذه الحال إلى أن تعود الطائرات إلى مطاراتها، فيبدأ الحمام احتفاله بالانتصار على الطائرة، ويطير بهدوء متفرقاً وسعيداً بزوال الاحتلال من أرضه.

الحمام يشبه البشر تماماً، فحين تكون الطائرات في السماء يتراص الحمام ويجتمع إلى بعضه البعض، كأن كل واحدة تحتمي بالأخرى. أما حين تكون السماء محررة من الطائرات، ستجد أن الحمامات تطير متباعدة الواحدة عن الأخرى، مع وجود حمامات تطير مفردة بعيداً عن السرب بكثير. وهذا ما يحصل للبشر، فحين تتعرض منطقة للقصف يجتمع الجيران في منزل واحد ويتكاتفون مع بعضهم البعض، محتمين ببعضهم من القصف، وإذ يتوقف يعود كل إلى منزله. في الحالة الأولى، يتلاءم الخوف مع القطيع والاستبداد، وفي الحالة الثانية يتلاءم الأمان مع الفردية والحرية.

في دمشق يغدو الحمام دليلي الشخصي ووكالة إعلامي الخاصة (مع وكالة إعلام الله) لقراءة حدة المعارك وتطوّرها، فحين يختفي الحمام ولا آراه من نافذتي حيث أكتب، أدرك أن ثمة قصفاً وطائرات ومعارك، وحين يهدل الحمام سماءً، متفرقاً بهدوء، أترك النافذة وأتابع عملي، مطمئناً أن الاستبداد إلى زوال، فكما زالت الطائرة من وطن الحمام (السماء) سيزول الاستبداد من وطني، لأن الحمام شريك لنا في رحلة الحرية، وقد

أقدم الناشطون، حين اشتدت القبضة الأمنية، على ربط رزمة من شعارات الحرية بأقدام الحمام، في تجسيد لمقولة «أن تشعل شمعة خير من أن تلعن هذا الظلام»، مستلهمين شعار ثورة الطلاب الفرنسية: «كونوا واقعيين واطلبوا المستحيل!»، ليطير الحمام ويمطر:

حرية

حرية

حرية

فوق سماء دمشق!

هل يُهزم الحمام؟!

قطعاً.. لا!

صدر من سلسلة «**شهادات سورية**»، بمساعدة من جمعية «**مبادرة من أجل سورية جديدة**» ـ باريس، الكتب التالية:

1. موزاييك الحصار، عبد الوهاب عزّاوي.
2. إلى ابنتي، هنادي زحلوط.
3. بين الإله المفقود والجسد المستعاد، نبراس شحيّد.
4. كَمَن يشهد موته، محمد ديبو.

تتفتح الشهادة المقدّمة في هذا الكتاب على تطابق بين اسم شهيد واسم الكاتب صاحب الشهادة. ومن تــلك النافذة البدئية تتناسل ذكريات الانتفاضة وما حملته من آمال وفرح وأحزان وقلق. تتنقل اللغة من الشعر إلى التحليل السياسي برشاقة تتلاشى معها الحواجز بين اللغة واللغة لتضع حجراً في بناء الذاكرة الجمعية لشعب أراد يوماً أن يفيق.

تحمل شهادة محمد ديبو صورة شفافة عن تهتك النسيج المجتمعي السوري وعن عمق الألم وتطرح سؤالها القاسي:

"هل الموت وحده يوحّد السوريين بعد أن فرقهم الوطن؟....." ليستدرك لاحقاً: "ماذا يعنينا الوطن، إن متنا، فهل سنصحبه إلى العالم الآخر؟".

